بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستهدِيهِ ونستغفرُهُ ، ونعوذُ باللهِ مِنْ شُرورِ أنفُسِنا ومِنْ سيِّئاتِ أعمالِنا ، مَنْ يَهدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ ومنْ يُضللْ فَلا هاديَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيِّدَنا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيْماً كَثِيراً .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٢) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

(الأحزاب: ٧٠-٧١).

أمّا بعدُ . . . . . .

فهذهِ أطروحةٌ لنيلِ شَهادةِ الدّكتوراه في الدّراساتِ الإسلاميّة ، بعنوانِ : ملامحُ الإصلاحِ والتّجديدِ في فكر الدكتور مُحَمَّدٍ البهيِّ .

١- أهميَّةُ البحثِ : تظهرُ أهميَّةُ هذا البحثَ في كونهِ يتناولُ حُقْبَةً زمنيّةً جِدُّ خطيرةٍ ، وهيَ مَطْلَعُ القَرنِ العشرين وأعتابُ القرنِ الحادي والعشرينَ . وبالتَّحديدِ ما بينَ عاميِّ (١٩٠٥-١٩٨٢م) . حيثُ طرأتْ أحداثٌ إسلاميّةٌ

عربيّةٌ في غايةِ الأهميَّةِ والحساسيَّةِ ، ومشاكلاتٌ حزبيّةٌ قُطْريَّةٌ مُتعدِّدَةٌ ، وأُخرى عالميةٌ خطيرةٌ ، تحمِلُ في ثَناياها الغثَّ والسَّمينَ ، والهزيلَ والرَّصينَ ، إذْ نَشبَتْ حَربانِ عالميَّتانِ ، وسقطَتْ دَولةُ الخِلافَةِ الإسلاميَّةِ ، ثمّ تَشرذَمَتْ في أقطارٍ ، رزحَتْ تحتَ ما يُسمَّى بالاستعمارِ الغربيِّ والشَّرقيِّ على حدٍّ سواءٍ ، واحتلَّ الصَّهاينَةُ فلسطينَ والأقصَى .

وقامتْ حركاتٌ وأحزابٌ في العالَمِ الإسلاميِّ عامَّةً ومِصْرَ خاصَّةً ، حيثُ الأزهرُ الشَّريفُ ، الذي تخرَّجَ مِنْ أروقَتِهِ عُلَماءٌ أفذاذٌ ، ومُفكِّرُونَ مُجدِّدُونَ ، يتمتَّعُونَ بالغَيْرَةِ الإيمانيَّةِ . كانَ مِنْ بينِهِم العالِمُ الجَليلُ « مُحَمَّدُ البهيُّ » المُفكِّرُ المُجَدِّدُ في تلكَ الفترَةِ الزَّمَنيَّةِ .

٢- هدفُ الدِّراسةِ :

قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب:٢٣).

منْ حَقِّ عُلَماءِ هذهِ الأُمَّةِ وقادةِ الفِكرِ الإسلاميِّ فيها ، أنْ يُشيدَ اللاَّحقُونَ بالسَّابقِيْنَ مِنْهُم ؛ إحْياءً لتُراثِهِم ، واعترافاً بحُسْنِ صَنيعِهِم . تَخليداً لِذكراهُم ، واستنطاقًا لتاريخِ حياتِهِم ؛ اعتباراً وتأسِّياً ، عِلْماً وعَمَلاً ، إصْلاحاً وتَنظيْماً . مِنْ هؤلاءِ الأعلامِ : المفكِّرُ « مُحَمَّدٌ البهيُّ » ، فإنَّهُ صَدَقَ ما عاهدَ اللهَ عليهِ ، فأعطَى لأُمَّتِهِ مِنْ فكرِهِ الشيءَ الكثيرَ ، فَتهدِفُ هذهِ الدِّراسَةُ للتَّنويْهِ بهِ .

وللكَشفِ عنْ عناصرِ التَّجديدِ والإصلاحِ في مُؤلَّفاتِهِ ، فإنَّهُ كانَ مُهتَمّاً بتربيةِ جيلٍ مُتكامِلٍ قائِمٍ على مبادئِ الإسلامِ ، فوضَعَ البرامجَ والأساليبَ وآليّاتِ التَّنفيذِ ، الَّتي تُؤدِّي إلى إقامةِ المُجتمعِ الإسلاميِّ الفاضلِ ، القائمِ على الإصلاحِ والتَّجديدِ والتَّطويرِ ، ومِنَ الأمثلَةِ على ذلكَ ما يلي :

- الرَّسائلُ الأيدولوجيَّةُ للأفكارِ الاشتراكيَّةِ الطَّارئَةِ . وأصَالةُ الفكرِ الأيدلوجيِّ الإسلاميِّ .

- رِسالَةُ إصلاحِ المرأةِ والتَّربيةِ الأزهريَّةِ خاصَّةً . والرَّسائلُ الجامعيَّةُ عامَّةً .
- رسالةُ الدَّعوةِ في المساجدِ .
- رسالةُ الأزهرِ في المعاهدِ الدِّينيَّةِ .
- رسالةُ الدَّعوةِ في الخارجِ .

٣- سببُ الدِّراسةِ : إنَّ الباحثَ في سيرةِ «البهيِّ» الفكريَّةِ ، يجِدُ الحِسَّ الإسلاميَّ الصَّادِقَ ، وحُسْنَ الفقهِ في معركةِ الإسلامِ مَعَ خُصُومِهِ . يظهَرُ هذا في فكرِهِ الإسلاميِّ الحديثِ ، وحربِهِ للعَلمانيَّةِ والكُفرِ والإلحادِ ، ونقضِهِ لقانونِ التَّأميمِ والاشتراكيَّةِ . ودعوتِهِ لإصلاحِ الأزهرِ ، ثُمَّ نقدِهِ للاستشراقِ والمُستشرقينَ في كتابِهِ : «الفكرُ الإسلاميُّ الحديثُ وصِلَتُهُ بالاستعمارِ الغربيِّ ، فتَراهُ يقولُ : (وقدْ وضَعْتُ معالِمَ هذا الكتابِ ، وأنا في كندا ، في مدينةِ «مونتريال» ، بجامعةِ «ماكجيل» في سَنَةِ ١٩٥٥/١٩٥٦م ، . . . وقدْ أشفَقْتُ على نفسِي مِنْ أنْ أموتَ حُزناً ، على ما يُباشِرُهُ المُستشرقونَ ضدَّ الإسلامِ في الغربِ والشَّرقِ على السَّواءِ) [١]. كانَ البهيُّ مِنْ أوائلِ مَنْ كَتَبَ في التَّفسيرِ الموضُوعيِّ للقُرآنِ الكريمِ ، وأُطلِقَ على هذا المنهجِ مدرسَةُ الوِحْدَةِ الموضُوعيَّةِ في القُرآنِ ، (فرفَضَها البعضُ وحاولَ مَنْعَ نقاشِها في جامعةِ الأزهرِ .. وأمّا المُنصفونَ والمُعتدلونَ فطالبُوا بالدَّليلِ والبيانِ ، وضَرْبِ الأمثلَةِ مَعَ الحُجَّةِ والبُرهانِ)[٢]. فكانَ مِنْ أسبابِ الدِّراسةِ لِهذا البَحثِ ، مُحاولةُ إبرازِ الجوانبِ المهمَّةِ والأفكارِ الإبداعيَّةِ ، المُتصلَةِ بِهذا المَنهجِ ، ما لَهُ وما عليهِ .

---

(١) محمد البهي : حياتي في رحاب الأزهر ، طالب . وأستاذ . ووزير ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص١٢٧ .

(٢) دكتور محمود حجازي : الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م ، ص٣٧٧-٣٨٠ .

٤- صعوباتُ الدِّراسةِ (أو البحثِ) : تَكْمُنُ الصُّعوباتُ في قِلَّةِ المراجعِ والمصادرِ التي تناولتْ هذا الموضوعَ ، بالرَّغمِ مِنْ أنَّ «البهيَّ» قدْ : ألَّفَ تسعةً وستينَ مؤلَّفاً مُتنوِّعاً ، وتولَّى مناصبَ كبيرةً وعديدةً ، لكنَّهُ كانَ مُعارِضاً لكثيرٍ مِنَ القَضايا الاقتصاديَّةِ والفكريَّةِ المستوردَةِ . إضافةً إلى تورُّعِهِ عَنْ أنواعٍ مِنَ الحَلالِ الخالصِ ، في الوقتِ الذي كانَ الكثيرُ مِنْ أقرانِهِ يلتَمِسُونَ شُبَهَ التَّحليلِ لمالٍ حرامٍ ؛ لذا لمْ يُكتبْ عنْهُ بما يليقُ بعمقِ فكرِهِ التَّجديديِّ ، في الوقتِ الَّذي حَظِيَ بِهِ مَنْ هُم دونَهُ بالتَّكريمِ الواسعِ ، (بينما أُستاذُنا الجليلُ المرحومُ الدُّكتورُ «مُحَمَّدٌ البهيُّ» ، صاحبُ المدارسِ الفكريَّةِ وصاحِبُ التَّاريخِ الحافلِ ، لم يُكتبْ عنْهُ في صَحيفةٍ ، أَوْ تَتَناولْ حياتَهُ الإذاعاتُ أَوِ التِّلفازُ ، بالرَّغمِ مِنْ أنَّ لَهُ تلاميذَ كثيرينَ . فلمَّا انتَقَلَ إلَى رَحْمَةِ اللهِ تعالَى ، لَمْ يَذْكُرْهُ أَحَدُهُم ، اللَّهُمَّ إلاَّ مقالَيْنِ صَغيرَيْنِ . نُشِرَ الأوَّلُ في مجلَّةِ الأزهرِ ، ونُشِرَ الثَّاني في مجلَّةِ الهلالِ ، وإحْقاقاً للحَقِّ ، فَقَدْ كُتِبَ مقالٌ في مجلَّةِ الأُمَّةِ ، ومقالٌ آخرُ صغيرٌ بمجلَّةِ أُكتوبر [مِمَّا] يُثيرُ في النَّفسِ الْحَيْرَةَ والعجَبَ)[1]. لِذا جاءتْ هذهِ الدِّراسَةُ بياناً للصَّوابِ ، ثُمَّ لِيَنْزِلَ العُلماءُ منازلَهُمُ الكريمَةَ ؛ لأنَّهُم قادةُ الفكرِ والتَّجديدِ والإصلاحِ ، فينبغي ألاَّ يُغْمَطَ حقُّهُم .

٥- منهجُ البحثِ : تَتَبَّعَ البحثُ المنهجَ الوصفيَّ التَّاريخيَّ للأحداثِ ، في مَطلعِ القرنِ العشرينَ ، مُنْذُ (١٩٠٥-١٩٨٢م) ، لأن العناصِرَ : السِّياسيَّةَ ، الاقتصاديَّةَ ، الاجتماعيَّةَ ، والبيئيَّةَ ، والَّتي مِنْ شأنِها أنَّها تعكِسُ الصُّورةَ الحقيقيَّةَ الثَّقافيَّةَ والفكريَّةَ . إذْ تُصوِّرُ واقعَ الحياةِ كما هيَ . بالإضافةِ إلى مَنهجِ الوصفِ التَّحليليِّ ، وإبرازِ أهمِّ النتائجِ والتَّوصياتِ .

---

(١) وهبة حسن وهبة : مقدمة مذكرات أيام من حياتي في رحاب الأزهر ، طالب . وأستاذ . ووزير ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ص٢٤ .

٦- **مجالُ وحدودُ الدِّراسةِ** : تَقَعُ حدودُ الدِّراسةِ في مجالِ ملامحِ التَّجديدِ والإصلاحِ في مؤلفاتِ «البهيِّ»، والتَّعرُّفِ على منهجِ التَّفسيرِ الموضوعيِّ ، القائمِ على الحَداثةِ والأصالةِ في الطَّرحِ ، مُتَلَمِّساً لقضايا حياتيةٍ مُعاصرةٍ . تقومُ على لُغةٍ سهلةٍ ، والبُعدِ عنِ الحَشوِ والخُرافاتِ والإطالةِ والإسرائيليّاتِ . وذلكَ بالعَودَةِ إلى أُمَّاتِ المراجعِ والمصادرِ ، وفي مُقدمتِها : القُرآنُ الكريمُ ، بعضُ التَّفاسيرِ ، كُتُبُ الصِّحاحِ السِّتَةِ ، والعقيدةُ ، والمعاجمُ اللُّغويةُ وغيرُها .

٧- **خُطُواتُ الأُطروحةِ : المقدِّمةُ وفيها الفصلُ التَّمهيديُّ** : حيثُ تناولَ العصرَ والبيئةَ ، ثمَّ قُسِّمتِ الأُطروحةُ إلى بابينِ ، اشتملَ البابُ الأوَّلُ على أربعةِ فصولٍ . تَناوَلَ السِّيرةَ الذّاتيةَ والحياةَ الخاصَّةَ والعامّةَ للدكتور محمد البهيِّ ، مُضافاً إليها كُتُبُهُ أو مؤلفاتُهُ والمناصبُ التي تقلَّدَها . واشتملَ البابُ الثاني أيْضاً على أربعةِ فصولٍ ، تناولَ الجهودَ الإصلاحيَّةَ التي قامَ بها البهيُّ في شتَّى الميادينِ : فيها السياسيُّ والاقتصاديُّ والاجتماعيُّ ، والثقافيُّ والدِّينيُّ ، وفيها أهمُّ نقاطِ البحثِ معَ طرحِ بعضِ الأفكارِ التي تُبرِزُ القيمةَ العلميَّةَ للبهيِّ ، وَمَكانَتَهُ بينَ العلماءِ .

ثمَّ خُتِمَتِ الأُطروحةُ ، بخاتِمَةٍ عُنوانُها : البهيُّ في الميزان (ما لَهُ وما عليهِ) . ويلي ذلكَ مجموعةٌ مِنَ الفهارسِ المُتَنوِّعَةِ . وفي مِسكِ الختامِ : فإنّي أشكُرُ اللهَ سُبحانَهُ وتعالَى ، الَّذي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذي قَدَّرَ فَهَدَى . ثُمَّ أتقدَّمُ ، بِخالَصِ شُكري وتَقْديري ، للأُستاذ الدُّكتور : علي دحروج ، أستاذ عُلوم القُرآنِ الكريمِ ، في كُلِّيَةِ الإمامِ الأوزاعيِّ للدِّراساتِ الإسلاميَّةِ . حيثُ تفضَّلَ بموافَقَتِهِ ، للإشرافِ على هذهِ الأُطروحةِ ، فأرشَدَني بحُكمِ خبرتِهِ البحثيَّةِ ، ودرايتِهِ المنهجيَّةِ ، إلى كثيرٍ مِنَ القضايا المهمَّةِ ، فجزاهُ اللهُ تعالَى خيرَ الجزاءِ ، على لُطْفِ خِصالِهِ ،

وحُسنِ تعامُلِهِ ، وجميلِ صَبرِهِ . ويُشرِّفُنِي أنْ أشكُرَ للأُستاذ الدُّكتور : نايف معروف ، أُستاذِ اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها ، إذْ تَفضَّلَ بالقراءةِ الثّانيَةِ لهذهِ الأُطروحَةِ ، فأشارَ عليَّ بنصائِحِهِ ، وتوجيهاتِهِ اللُّغَويَّةِ القيِّمَةِ . وَأشكُرُ الأُستاذَ الدُّكتُورَ : بسام عبد الحميد أُستاذَ الدراساتِ الإسلاميةِ في كليةِ الإمامِ الأوزاعيِّ والعُضْوَ الثَّالِثَ في المناقشة على حُسنِ صنيعِهِ . وأشكرُ العلماءَ والأساتذةَ في الكليّةِ ، وعلى رأسهم ، صاحبَ الفضيلَةِ : الأستاذ الدُّكتور كامل موسى . والشكرُ المتواصلُ للهيئةِ الإداريَّةِ وعلى رأسهم : الحاج توفيق الحوري ، والأستاذ بدر الدِّين نوار ، على جهودِهِ الإداريةِ القيمة والمباركة . وإلى جميع العاملينَ الإداريينَ في كلية الإمام الأوزاعي . وشكري الخاص للأخ الأستاذ : خالد ناصر ، مديرِ إدارةِ دار العلومِ العربيّةِ للنشرِ والتّوزيعِ ، حيثُ سهّلَ ليَ كثيراً مِنَ الصُّعوباتِ والعقَباتِ ، جزاهُ اللهُ تعالى خيراً . وشكري المتواصل للسيدة : رانيا سليمان المشرفة على طباعة هذه الأطروحة . واللهُ وليُّ التّوفيق .

دكتور

خالد رحال الصلاح

الفصلُ التَّمهيديُّ

البيئةُ والعصرُ

مُقدِّمةٌ

أولاً : في الحالةِ السِّياسيَّةِ .

ثانياً : في الحالةِ الاقتصاديَّةِ .

ثالثاً : في الحالةِ الاجتماعيَّةِ .

رابعاً : في الحالَةِ الثَّقافيَّةِ .

خامساً : في الحالةِ الدِّينيَّةِ .

الفصلُ التَّمهيديُّ

العصرُ والبيئةُ
مُقدِّمةٌ

تمهيدٌ

إنَّ السِّماتِ العامّةَ لأيَّة شخصيّةٍ ، تعكِسُ ما في عصْرِهِ وَبيئتِهِ ، لذا فلا بُدَّ لدراسةِ أيّ عَلَمٍ منَ الأعلامِ المرموقَةِ . مِنْ دراسةٍ لعصرِهِ وبيئتِهِ ؛ لمُلاحظةِ مَدَى تأثيرِهِ عليها وتأثُّرِهِ بها سَلباً وإيجاباً ، لأنَّ العَصْرَ وَالبيئةَ وما يشْتملانِ عليهِ منْ تياراتٍ مختلفةٍ : سياسيةٌ كانتْ ، أو اقتصاديّةٌ ، أو اجتماعيّةٌ ، أو ثقافيّةٌ ، أو دينيّةٌ ، كلُّها تؤثِّرُ في بناءِ الشَّخصيّةِ وتَوجيهها . فَالإنسانُ وليدُ عصرِهِ ، ونتاجُ بيئتِهِ ، لذا فإنهما يظهرانِ في كلِّ نَسمَةٍ حَسَبَ استعدادِها في الأخذِ والعطاءِ ، وفي السَّعادةِ والشَّقاءِ ، هكذا النّاسُ يَختلفُونَ في مقدارِ تأثُّرِهِم بُكلِّ ما يُحيطُ بهم مِنْ أحداثٍ ومُلابساتِ عصرِهِمُ الّذي يَحيونَهُ ، وفقَ قُدُراتِهم واستعداداتِهم . حيثُ إنَّ اللهَ سُبحانَهُ وتَعالى ، امتنَّ على العبادِ بنعمةِ الْخَلْقِ والإيجادِ ، فإنَّهُ سخَّرَ لهُم ما في الأرضِ جميعاً ، وخلقَ آدمَ عليه السلامُ ، ثمَّ وهبَهُ القُدرةَ على التَّفكيرِ والتَّعلُّمِ . بلْ زَوَّدَهُ بعلْمٍ غَزيرٍ ، فَوَقَفَتِ الملائكةُ عاجزةً عَنْهُ ، ثُمَّ جعلهُ خليفةً لهُ في الأرضِ ؛ لكي يعْمُرَها ، ويُنفِّذَ أحكامَهُ فيما بعدُ على قاطنيها ، كذلكَ نسلُهُ مِنْ بعدِهِ ، يَخْلُفُ بعضُهُم بعضاً ، قَرناً بعدَ قَرْنٍ ، وجيلاً بعدَ جيلٍ ، يقولُ اللهُ تعالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى

ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠-٣٣). أمَّا الحكمةُ من إخبارِ اللهِ تعالى للملائكةِ عَنْ خَلْقِ آدمَ عليهِ السَّلامُ واستخلافِهِ في الأرضِ فهيَ (تعليمٌ لعبادِهِ المُشاوَرَةَ في أُمورِهِم قبلَ أنْ يُقدِمُوا عليها [كما أنَّهُ] امتنَّ عليهِم بتشريفِ أبيهِم وتكريمِهِ .

بِجَعْلِهِ خليفةً ، وإسْجادِ[1] الملائكةِ [لهُ] تعظيماً لشأنِهِ . لا شكَّ أنَّ الإحسانَ إلى الأصلِ إحسانٌ إلى الفَرْعِ . وأنَّ النِّعمةَ على الآباءِ نعمةٌ على الأبناءِ)[2]. يُخبِرُ اللهُ تعالى العبادَ بمظاهرِ قُدرتِهِ وعلْمِهِ وحِكْمَتِهِ ، المُوجِبَةِ لعبادتِهِ دونَ سواهُ بأنَّهُ : (علَّمَ آدمَ أسماءَ الموجوداتِ كُلَّها ، ثمَّ عَرضَ الموجوداتِ على الملائكةِ ، . . . . فعجَزُوا وأعلنُوا اعترافَهُم بذلكَ ، [فأمرَ اللهُ تعالى آدمَ]

---

(١) سَجَدَ : تعني خَضَعَ ، يسجُدُ ، سُجوداً وإسجاداً . والمساجِدُ جمعُ المَسْجِد ، والْمَسْجَد بفتح الجيم : هي جبهةُ الرَّجُلِ حيثُ يُصيبُهُ أثرُ السُّجُودِ ، والسُّجُودُ هنا تعني : سُجُود تحيَّةٍ لآدمَ عليه السلامُ وليسَ سجُودَ عبادةٍ ، وقد أجمع أهل الإسلام قاطبةً أنَّ السجودَ لا يكون إلا لله تعالى . انظر ، محمد بن أبي بكر عبد القادر الرّازي : مختار الصحاح ، لجنة من مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية،القاهرة، لا . ط ، لا . ت ، ص٢٨٦ .

(٢) محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ، دار القلم ، بيروت ، ط٥ ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ، مج١ ، ص٤٧-٤٩ .

فأنبأهُم بأسماءِ تلكَ المخلوقاتِ واحداً واحداً حتّى القَصْعةِ والقُصيْعَةِ . . وهُنا ظهرَ شرفُ آدمَ عليهم)[1].

ليسَ في الأمرِ ما يدعُو للاستغرابِ أو الإنكارِ ؛ لأنّ كِتابَ المقاديرِ ، فيهِ أسماءُ الموجوداتِ كُلِّها ، وكذا سائرُ صفاتِها وأحوالِها . إنَّ العَرْضَ التِّلفازي الذي يُشاهَدُ في أيامِنا هذهِ ، يُسهِّلُ على النّاسِ اليومَ إدراكَ كيفيّةِ عَرْضِ اللهِ تعالى الأشياءَ أمامَ الملائكةِ ، وكيفَ ذَكَرَ آدمُ أسماءَها كما عَلِمها بتعليمِ اللهِ تعالى لهُ ، يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر:٤٩). أيْ إنّ اللهَ تعالى خلقَ كُلَّ شيءٍ مُقدَّراً مَكتوباً في اللّوحِ المحفوظِ منذُ الأزلِ ، فَعَنْ عُبادةَ بنِ الصّامتِ رضيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « إنَّ أوّلَ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمَ ، فَقالَ لَهُ : اكْتُبْ ، فَجَرى بما هُوَ كائِنٌ إلَى الأبدِ »[2].

قَبْلَ البدايةِ في دراسةِ ملامحِ التَّجديدِ والإصلاحِ في مُؤلَّفاتِ البهيِّ ، الّذي وُلِدَ في مُنتَصَفِ العَقْدِ الأوّلِ مِنَ القرنِ العشرينَ الميلاديّ (١٩٠٥م) ، وتُوفِيَ في مَطْلَعِ العَقْدِ الثامنِ مِنَ القرنِ العشرينَ الميلاديِّ (١٩٨٢م) ، وقبلَ الإسهابِ في تناولِ مولدِهِ ، ونشأتِهِ ، وثقافتِهِ ، وشخصيّتِهِ ، وإصلاحاتِهِ ، وآثارِهِ العلميّةِ والعمليّةِ ، لا بُدَّ مِنَ الكشفِ عنْ بيئتِهِ وظُروفِهِ ، وما في عَصْرِهِ مِنْ تيّاراتٍ ومذاهبَ ، وما أحاطَ بالأمّةِ الإسلاميّةِ مِنْ طوارئَ ومُعطَياتٍ عامّةً . وفي مصرَ

---

(١) أبو بكر جابر الجزائري : أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ، ط١ ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، مج١ ، ص٣١ .

(٢) محمد بن عيسى بن سورة السلميُّ الترمذيُّ : سنن الترمذي ، اختصره ، مصطفى ديب البغا ، اليمامة للطبع والنشر والتوزيع ، دمشق ، سوريا ، رقم الحديث « ٣٣١٦ » ، ط١ ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م ، ص٣٠٢ ، ٥١٤ .

خاصّةً ، لا سيما إنّ تاريخَ مصرَ يرجعُ إلى ما قبلَ (خمسةِ آلافِ سنةٍ ، أي نحوَ عام ٣١٠٠ [قبلَ ميلادِ السيِّدِ المسيحِ عليه السلام] حيثُ نشأت إحدى أقدمِ الحضاراتِ ، على ضفاف نهرِ النّيلِ واستَمرّتْ لأكثرَ مِنْ ألفَي عامٍ ؛ وذلكَ بسببِ خُصوبَةِ الأرضِ الّتي أطلقَ أهلُ مِصْرَ القديمةِ عليها اسمَ« كيميت»[1]. [ومّما هو جديرٌ بالذّكرِ أنَّ] الحضارةَ المِصريّةَ القديمةَ قد أضافتْ الكثيرَ إلى التُّراثِ الإنسانيِّ العالميِّ ، فقد شَهِدَ وادِي النّيل أوّلَ سُلْطَةٍ مركَزيّةٍ في التّاريخِ . إضافةً إلى مَعرفَةِ الكتابةِ والإسهامِ في ابتكارِ عديدٍ مِنَ العُلومِ ، منها : الحسابُ والهندسةُ والطِّبُّ والفلكُ ومعرفةُ التّقويمِ ، والتّفكيرُ في البعثِ بعدَ الموتِ ، والثّوابُ والعِقابُ .

هذا مِمّا دَفَعَ مُلوكَهُم إلى بناءِ المعابدِ والمقابرِ المُذْهِلَةِ ، ومنها : الأهراماتُ ، إلى جانبِ معرفَةِ طُرُقِ تحنيطِ جُثَثِ الموتى ، والتي ما زالتْ أسرارُها غيرَ معروفةٍ حتى الآنَ ، [وقد] مرّت على مِصْرَ مراحلُ تاريخيّةٌ مُتباينةٌ . . . . خَضَعَتْ خلالَها لحُكمِ الإغريقِ والفرسِ والرُّومان ، حتى انبعثَ ميلادٌ جديدٌ لمِصْرَ بدخولِ الإسـلامِ رُبوعِها)[2].

هـذا الإرثُ التـاريخيُّ لمِصْـرَ بأبعـادِهِ ومُعطياتـهِ : السِّياسـيَّةِ والاقتصـاديّةِ والثقافيّةِ والحضاريّةِ والاجتماعيّةِ ، كانَ مِنْ نِتاجِهِ ، كوكبةٌ مِنَ العُلمـاءِ والأُدباءِ والمفكّرينَ المُجدّدينَ المُصلحينَ . في هذه البيئةِ التي تَتَّسِمُ بالأصالَةِ والمُعاصَرةِ

---

(١) كيميت : تعني الأرضَ السوداءَ« وهيَ كلمةٌ مِصْريَّةٌ قديمةٌ» كنايةٌ عن وفْرَةِ الرواسبِ الطّينيَّةِ التي يُرَسِّبُها النّيلُ على جانِبَي مَجْراهُ ، وفي دِلتاهُ خِلالَ فيضانِهِ ، والتي أسْهَمَت في خُصوبةِ التُّربةِ . انظرْ ، الموسوعة العربية العالميّة ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، الرياض ، السعودية ، ط٢ ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م ، ص٣٣٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣١ .

وُلِدَ «البهيُّ» وتَرعْرَعَ مُفكِّراً ومُجدِّداً مُصلِحاً . بالرُّغْمِ مِنَ الخلافاتِ السِّياسيَّةِ بأحزابها المُتصارعَةِ ، وأحلافِها ومصالحِها المُتناقِضةِ ، وحُروبِها وأطماعِها . ثُمَّ التَّبايُنُ المريرُ بينَ الأوضاعِ الاقتصاديَّةِ والاجتماعيَّةِ والثقافيَّةِ والدِّينيَّةِ المُتضاربَةِ جُودَةً أو رداءةً ، ارتفاعاً أو هبوطاً ، بين المدِّ والجَزْرِ ، في المدة الزمنيّة التي عاشها البهيُّ ، بين ولادته ووفاته من١٩٠٥م -١٩٨٢م ، والتي تظهرُ في النّواحي التاليةِ :

أولاً : في الحالةِ السِّياسيَّةِ

عندما ظهرَ الإسلامُ وانتشرَ نورُهُ السّاطِعُ في جزيرةِ العربِ ، أضاءَ روحاً جديدةً في نُفوسِ العربِ المُسلمينَ . أسْهَمَت في إعلاءِ رايةِ التَّوحيدِ ، والدَّعوةِ لدينِ اللّهِ الحقِّ ، وكانَ دُخُولُ المُسلمينَ مِصْرَ بقيادَةِ عمرو بنِ العاصِ رضيَ اللّهُ عنهُ[1]، عام ٢٢هـ/ ٦٢٤م .

فأصبحَتْ مِصْرُ تُشكِّلُ جُزءاً مُهمّاً مِنَ الأمة الإسلاميّةِ ، الّتي حكمَها الخلفاءُ الرّاشدونَ ، ثمَّ الأُمويُّونَ في دمشقَ ، وتلاهُمُ العبّاسيّونَ في بغدادَ ، وعند ما بدأَ الضّعْفُ يَدِبُّ في أرجاءِ الدّولةِ العباسيّةِ ، خلالَ مُنتصَفِ القرنِ التّاسعِ الميلاديِّ . كانَ من نتيجَةِ ذلكَ أنْ ظهرت الدّولةُ الطُّولونيَّةُ والإخشيديَّةُ[2] في مِصْرَ بينَ عاميّ : ٢٥٥-٣٥٩هـ الموافق لعاميّ ٨٦٨-٩٦٩م ، كما سيطرَ

---

(١) عمرو بن العاص : هو الفاتحُ الفذُّ ، والقائدُ العربيُّ الإسلاميُّ المُظَفَّرُ ، [فتحَ مِصْرَ في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وهو من كبار الصحابة رضي الله عنهم أجمعين] . انظر ، الموسوعة العربية العالمية .

(٢) الإخشيديّة : نسبة إلى الإخْشِيد ، لقب ملوك فِرْغانة ، ومعناه ملك الملوك ، ولُقِّبَ به «محمد بن طُغْج» الذي تولّى إمارةَ مصرَ عامَ٣٢٦هـ - ٩٣٧م ، وآباؤه من ملوك بلاد فِرغانة ، انظر ، إبراهيم مدكور : المعجم الوجيز ، ص٨ .

الفاطميّونَ على الحُكمِ في مِصرَ في عامِ ٣٥٩هـ / ٩٦٩م ، وشيّدوا مدينةَ القاهرةِ ؛ لتكونَ عاصمةً لهُم ، كما أنشأوا الجامعَ الأزهرَ الشّريفَ الّذي سُرعانَ ما أصبحَ مركزاً مُهمّاً لتدريسِ العلومِ الشّرعيّةِ .

لكنّ الدولةَ الفاطميةَ ترنّحَت ضعفاً ، فما لبثَ أنْ قامَ الصّليبيونَ[1] بغزوِ المشرقِ العربي ، فعاثُوا في الأرضِ فساداً ، قتلاً للأبرياءِ وتدْميراً للحياةِ والأحياءِ ، لا سيما في أكنافِ بيتِ المقدسِ ، وردهاتِ المسجدِ الأقصى ، وساحاتِ قُبّةِ الصّخرةِ المُباركةِ ، فأهلكوا الحرثَ والنّسلَ ، ثمَّ قيّضَ اللّهُ تعالى للأُمةِ الإسلاميّةِ القائدَ صلاحَ الدّينِ الأيوبيّ ، مُنذ عام٥٦٤هـ/١١٦٨م ، حيثُ تولّى وزارةَ العاضُدِ الفاطميّ ، فاستولى على زمامِ الأُمورِ في مِصرَ وقَضى على الدولةِ الفاطميّةِ ، وهزمَ الصّليبيّين قُربَ حطينَ عامَ١١٨٧م، وفتحَ بيتَ المقدسِ ، ثمَّ عقَدَ هُدنةً معَ الصّليبّيين وسالمَهُم .

وفي عام٦٤٨هـ/١٢٥٠م بدأت تظهرُ دولةُ المماليك ، الذين حكمُوا مِصرَ لأكثرِ من٢٠٠عامٍ ، وحقّقُوا كثيراً مِنَ المُنجزاتِ الحضاريّةِ ، لا سيما في مجال الفنِّ والعِمارةِ والأدبِ ، لكنَّ دولةَ المماليك انهارتْ في مصرَ عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م ، فدخلها السُّلطانُ سليمُ الأولُ ، التُّركيُّ الأصلِ الإسلاميُّ النّشأةِ ، وأصبحتْ مِصرُ ولايةً عُثمانيّةً ، وكذلكَ كانتْ معظمُ البلادِ العربيةِ تقريباً ، في أحضانِ الخلافةِ الإسلاميةِ العثمانيةِ ، والتي بدأ الضّعفُ السّياسيُّ والاقتصاديُّ والاجتماعيُّ والثقافيُّ ، يَنْخَرُ في الكيانِ العامِّ للدّولةِ ، نظراً لاتساعِ رُقعتِها من جهةٍ ، وعجزِ القُدرةِ العسكريّةِ منَ السّيطرةِ على أرجائها المُترامية الأطرافِ مِنْ

---

(١) الصّليبيون : جيوشٌ من نصارى أوروبا ، غَزتِ الشّرقَ الإسلاميَّ مِراراً ، بعدَ أن اتخذت الصليبَ شعاراً لها ، [وكان ذلكَ] فيما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين ، انظر ، إبراهيم مدكور : المعجم الوجيز ، ص٣٦٨ .

جهةٍ أُخرى ، فانتشرَ الجهلُ وسادتِ الأُميّةُ والخُرافةُ ، على أيدي بعضِ وُلاةِ السُّوءِ مِنْ يهودِ الدُّونمةِ[1] وغيرِهم . حيثُ أغرقُوا البلادَ بالدُّيُونِ الباهظةِ ، نظراً للفسادِ الماليِّ والإداريِّ ، القائمِ على الإقطاعِ والتَّسلُّطِ في جَني الضَّرائبِ والأتاوات[2]. فانتشرتِ الفوضَى السِّياسيَّةُ داخليًّا ، وثارَ التَّمرُّدُ العِرقيُّ والقوميُّ في أرجاءِ دولةِ الخلافةِ العُثمانيَّةِ ، بسببِ شُيُوعِ عَصْرِ القوميَّاتِ في أوروبا آنذاكَ . وتكالبتِ الأطماعُ الاستعماريَّةُ الغربيَّةُ ؛ لأنَّها اهتبلتِ الأوضاعَ الدّاخليّةَ المُترديَّةَ ، فأطلقتْ على دولةِ الخلافةِ ما يُسمَّى بالرَّجُلِ المريضِ ، لذا غزَتِ القُوّاتُ الفرنسيّةُ بقيادةِ نابليونَ بونابورت الدِّيارَ المصريّةَ عامَ ١٢١٣هـ/١٧٩٨م ، لكنّهُ غادرَ مِصْرَ عائداً إلى فرنسا ، وفشِلَتْ حملتُهُ أمامَ المُقاومَةِ المِصْريّةِ ، وساعدَ في ذلكَ أيضاً انتشارُ الأمراضِ في صفوفِ القوّاتِ الفرنسيّةِ ، فانسحبتْ عامَ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م .

---

(١) الدونمة : أي «المرتدين» وهم جماعة من اليهود الذين كانوا يتظاهرون بالإسلام ، ومعظمهم من النّازحينَ إلى تركيا من أسبانيا [الأندلس] ، بعد أن استولى عليها المسيحيّون في أعقاب الحكم العربي الإسلامي ، وكانت مدينة «سلانيك» تضمُّ عدداً كبيراً منهم ، هذا إلى أنّ حزب الاتحاد والتّرقي الّذي كان يضمُّ مُتفرنجي الترك ، كان واقعاً [أيضاً] تحت سيطرة اليهوديّة العالميّة عن طريق «الماسون» و«الدونمة» ، [حيثُ إنهم قاموا بمساعدة مصطفى كمال أتاتورك ، بالقضاء على الخلافة العثمانيّة الإسلاميّة ، في عام ١٩٢٤م] . انظر ، محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط٣ ، ١٣٩ هـ/ ١٩٧٢م ، ج١-٢ ص٧٩-١١٣ .

(٢) أتاوات : أتَوْتُهُ إتاوَةً : رشوتُهُ ، والإتاوةُ أيضاً : الخراجُ ، والرِّشوةُ ، أو تخُصُّ الرِّشوةَ على الماءِ ، جمع أتاوى ، والإتاءُ : ما يخرجُ من إكال الشَّجرِ ، والنَّماءِ ، وقد أتَتِ الماشيةُ إتاءً ، انظر ، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي : معجم القاموس المحيط ، رتبه ووثقه ، خليل مأمون شيحا ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م ، ص٣٢.

ثـمَّ نجـحَ محمـدُ علـي باشـا في تـولّي مقاليـدِ الحُكـمِ علـى مِصـرَ في عام١٢٢٠هـ/١٨٠٥م ، فَعَمِـلَ علـى تحـديثِ مِصْـرَ بنـاءً علـى برنـامجٍ مُحـدَّدِ الملامحِ ، يهدِفُ إلى تقويةِ البـلادِ مـنَ النّـاحيتينِ العسـكريّةِ والاقتصـاديّةِ ، وفي عهد الخديوي إسماعيل ، احتلت بريطانيا مصرَ ، في معركةِ « التل الكبير » عـام ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م ، ثمّ عزلتْهُ وعيّنتْ مكانَـهُ ولـدَهُ « الخـديوي توفيـق » ، وبعـدَ تحالُفِ الدولةِ العُثمانيّةِ معَ ألمانيا ، فرضتْ بريطانيا حمايتَها على مصرَ ، أثنـاءَ الحربِ العالميةِ الأولى ، حيثُ نشبتْ بين عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٨ للمـيلاد ، والتي انتهـتْ بهزيمـةِ الدَّولـةِ العُثمانيَّـةِ ، وأصـبحتِ الـدُّولُ العربيَّـةُ خاضـعةً في مُعظمِها للاستعمارِ البريطانيِّ أوِ الفرنسـيِّ ، حَسَـبَ اتفاقيـةِ سـايكس ـ بيكـو[1] عام ١٩١٦م .

زادتْ روحُ التَّذمُّرِ بينَ المِصريينَ ضدَّ البريطانيِّين ، لا سيما بعدَ نفـي « سـعد زغلول » ، ممّا أدّى إلى نُشوبِ الصِّراعِ الدَّمويِّ بينَ الطّرفينِ ، وكانتِ النتيجةُ أن اعترفَ الإنجليزُ باستقلالِ مصرَ ، وِفقَ مُعاهـدةِ عـام١٣٥٥هـ/١٩٣٦م ، بشـرطِ وجودِ قوّاتٍ لَهُم في الدِّيارِ المصريّةِ ، وخلالَ الحـربِ العالميّـةِ الثّانيـةِ ١٣٥٨-١٣٦٤هـ/ ١٩٣٩-١٩٤٥م ، غزتْ قوّاتُ المِحورِ الأراضِـيَ المصـريّةَ ، ولكنَّهـا هُزمتْ في معركةِ العلَمَيْنِ غربيَّ الإسكندريةِ عام١٣٦١هـ/١٩٤٢م .

---

(١) سايكس ـ بيكو : سايكس : يدعى مارك سايكس وكان يعمل وزيراً لخارجية بريطانيا عام ١٩١٦م ، وبيكو : هو جورج بيكو ، الذي كان وزيراً لخارجية فرنسا عام ١٩١٦م . قام الوزيران بوضع اتفاقية سميت باسميهما ، وتنص على تقسيم المشرق العربي إلى ثلاث مناطق نفوذ : بريطانية ، وفرنسية ، ودولية . أُنظر ، أريج غازي : تاريخ العرب والعالم المعاصر ، إدارة المناهج والكتب المدرسية في وزارة التربية والتعليم ، عمّان ، ط١ ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م ، ص٤١ .

استطاعتْ مِصرُ مع بعضِ الدُّولِ العربيّةِ في عام ١٩٤٥م ، من تأسيسِ جامعةِ الدُّولِ العربيّةِ ، والتي اتخذتْ منَ القاهرةِ مقراً لها ، ثمّ دخلتْ عُضواً مؤسّساً للأُممِ المُتّحدةِ ، والتي للأسفِ بدورِها صوّتَتْ على تقسيمِ فلسطينَ إلى دولتين : إحداهُما عربيةٌ والثانيةُ يهوديةٌ وذلك في عام ١٩٤٧م ، وانسحبتِ القُواتُ البريطانيّةُ مِنْ فلسطينَ ظاهريّاً ، وتمّ إعلانُ تكوينِ ما يُسمّى بدولةِ : الكيانِ الصُّهيونيِّ « إسرائيل[1] » في عام ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م .

وانتقلتْ مِصْرُ مِنَ العهدِ الملكيِّ إلى العهدِ الجُمهوريِّ ، حيثُ نجحتْ ثورةُ عام ١٣٧١هـ/١٩٥٢م ، بقيادةِ « جمال عبد الناصر » في طردِ الملكِ « فاروق »، وتولّى مجلسُ قيادةِ الثّورةِ[2] مسئوليّةَ إدارةِ البلادِ ، وأُعلنتِ الجمهوريّةُ في مصرَ عامَ ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م ، وتولّى « محمد نجيب » رِئاسةَ الجمهوريّةِ إلى جانبِ رئاستِهِ لمجلسِ الوزراء ، وفي عام ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ، أصبحَ « جمالُ عبد الناصر » : رئيساً للوزراءِ واختفى « محمد نجيب » مِنْ مَسرحِ الأحداثِ في مصرَ ، وتولّى جمال عبد الناصر » قيادةَ الدّولةِ .

---

(١) إسرائيل : تطلقُ لفظةُ بني إسرائيل على ذريّة سيِّدِنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وهذه اللفظة هي الاسم الثاني لسيدنا يعقوب ، وكلمة إسرائيل تتألّفُ من مقطعين« إسرا» بمعنى عبد أو زاهد أو حبيب أو محارب ،و« إيل» بمعنى الإله ، فيصبح معنى كلمة إسرائيل« عبد الإله» ، أو الزاهد في سبيل الله . انظر ، خالد رحال الصلاح : العقائد المشتركة بين اليهود والنصارى وموقف الإسلام منها ، رسالة ماجستير تمَّ نشرُها ، دار العلوم العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م ، ص٤٢ .

(٢) مجلس قيادة الثورة : مجموعةٌ من الضباط المصريين ، الذين أطلقوا على أنفسهم صفةَ الأحرار ، وهم الذين قادوا ثورةَ يوليو ١٩٥٢م ، وأهمهم : جمال عبد الناصر ، ومحمد نجيب ، وأنور السادات ، وعبد الحكيم عامر . انظر ، الموسوعة العربية العالمية ، ص٣٣٣ .

اشتركتْ مِصرُ وسوريا في تأسيسِ مشروعِ الوحدَةِ في عام١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م ، فتمَّ ذلكَ وأصبحَ «جمال عبد الناصر» رئيساً للدّولةِ التي عُرِفتْ باسمِ الجُمهوريَّةِ العربيَّةِ المُتَّحِدَةِ ، وفي عام١٣٨١هـ/١٩٦١م ، قامتْ مجموعةٌ عسكريّةٌ بانقلابٍ لفصلِ سوريا عنْ مِصرَ ، وانتهتْ دولةُ الوحدَةِ فيما بينهُما عام ١٩٦٢م .

ومنَ الأحداثِ السِّياسيَّةِ الهامَّةِ التي أصابتْ مِصرَ ، في هذهِ الحِقبةِ ما يُسمَّى بالعُدوانِ الثُّلاثيِّ مِنْ «فرنسا وبريطانيا والكيانِ الصُّهيونيِّ» ، واحتلالِهم قطاعِ غزَّةَ وسيناءَ في أُكتوبر عام ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م ، فوضعَ الاتحادُ السُّوفيتيُّ ثِقَلَهُ في هيئةِ الأممِ المُتّحدةِ في عهدِ الرئيسِ «نيكيتا خروتشيف» ، وساندَهُ في ذلكَ الرَّئيسُ الأمريكيُّ آنذاك ، ممّا أدى إلى انسحابِ قُوّاتِ العُدوانِ الثُّلاثيِّ .

ثمَّ اندلعتْ حربُ الأيام السِّتَّةِ[1] بين العربِ وإسرائيلَ عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م ، وكان من نتائِجها احتلالُ الكيان الإسرائيلي للضَّفةِ الغربيَّةِ[2] مِنَ

---

(١) حرب الأيام الستة : وقعت في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م بين مصر والأردن وسوريا من جهةٍ رئيسةٍ ، ومساندة السعودية ومنظمة التحرير الفلسطينية ، والعراق والكويت من جهةٍ ثانيَةٍ ، وبين الكيان الصهيوني من جهةٍ أخرى ، وهكذا استمرّت خطّة [الكيان الصهيوني] التّوسعية ، حيث احتلّ باقي فلسطين ، وأجزاءَ من مصر وسوريا ولبنان . انظر ، جمعة أحمد قاجة : غزّة خمسة آلاف عام حضور وحضارة ، دار العلوم العربية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣م ، ص٣٨٤ .

(٢) الضفة الغربية : يطلق على الجزء المتبقي من فلسطين بعد عام ١٩٤٨م ، حيث تمَّ الاجتماع بين الملك عبد الله بن الحسين الأول ، مع وجهاء ما سمّوه بالضفة الغربيّة من الأردن عام ١٩٤٩-١٩٥٠م ، وتكونت المملكة الأردنية الهاشميّة من المنطقة الواقعة بين ضفتي نهر الأردن ، وعاصمتها عمّان ، فكان إنجاز وحدة ضفتي نهر الأردن عام ١٩٥٠م في عهد الملك المؤسس الشهيد عبد الله بن الحسين بن علي ، رحمه الله تعالى . انظر ، غازي محمد طلال عبد الله : الثقافة العامّة ، وزارة التربية والتعليم ، عمّان ، ط١ ، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م ، ص ٩٠ ، ٩١ .

الأردُنِ ، وشبهِ جزيرةِ سَيناءَ والجولانَ السُّوريّةِ ، وتقدّمتِ القُواتُ العُدوانيّةُ حتى الضّفةِ الشّرقيّةِ من قناةِ السُّويسِ ، وفجأةً ماتَ «جمال عبد الناصر» عام ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م ، فتولّى نائبُهُ «محمد أنور السادات» رئاسةَ مصرَ ، وسُرعانَ ما عَمِدَ إلى تغيير اسمِ الدّولةِ الرّسميِّ فأصبحَتْ : «جمهوريّةُ مِصْرَ العربيّةِ» ، وكان يؤمِنُ بأهميّةِ الدّعمِ الأمريكيِّ ؛ لذا اتخذَ قراراً باستغناءِ مِصرَ عنْ خُبراءِ الاتحادِ السوفيتيِّ في كافّةِ المجالاتِ .

رسمَ السادات خِطّةً عسكريّةً بالاتفاقِ معَ القيادةِ السُّوريّةِ ، لمُهاجَمةِ الكيانِ الصُّهيونيِّ ، في العاشرِ منْ رمضانَ عام ١٣٩٣هـ ، الموافق للسادس من أُكتوبر عام ١٩٧٣م ، وتحطّمَتْ أُسطورةُ الجيشِ الذي لا يُقهرُ ، بعدَ أنْ عبرتِ القُوّاتُ المصريّةُ قناةَ السُّويسِ ، والحصونَ المنيعةَ والمخابئَ المُزوّدةَ بأدواتِ الموتِ والقتالِ المُتعددةِ .

كذلكَ اقتحَمتِ القُوّاتُ السُّوريّةُ هضبةَ الجُولانَ السُّوريّةِ ، ولاذَ الصهاينةُ بالفِرار ، وقدّمتِ الدُّولُ العربيّةُ لا سيما ـ العراقُ ، الأردنُ ، السُّعوديّةُ ، الكويتُ ، ومُنظّمةُ التّحريرِ الفلسطينيّةِ ، المساعداتِ المتنوّعةَ لمِصْرَ وسوريا . ثمّ تدخّلتِ الولاياتُ المُتحدةُ الأمريكيّةُ ، بما يُدعى برحلاتِ «كيسنجر المكوكيّة» . انتهتِ المُباحثاتُ باتفاقٍ بينَ مِصرَ وإسرائيلَ إلى فصلِ قواتِهما ، وانسحابِ قوّاتِ العُدوانِ الإسرائيليِّ منْ بعضِ أجزاءِ سَيناءَ عامَ ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م ، وافتتاحِ قناةِ السُّويسِ أمامَ المِلاحةِ الدّوليّةِ في عام ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

مِنْ أخطرِ الأحداثِ التي قامَ بها «السّاداتُ» ، زيارتُهُ للكيانِ الصُّهيونيِّ وخطابُهُ أمامَ الكنيستِ الإسرائيليِّ في عام ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، وما تَبِعَ ذلكَ مِنْ

توقيعِ ما يُسمَّى باتفاقيّةِ «كامب ديفيد»[1] عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م . استعادتْ مِصْرُ بموجبها شبهَ جزيرةِ سَيناءَ كاملةً ، مُقابلَ الاعترافِ بإسرائيلَ ، وإنهاءِ حالةِ الحربِ معها ، فلمَ تلقَ سياساتُ السّاداتِ تأييدَ كلِّ الطوائفِ المصريّةِ ، كما رفضتها الدُّولُ العربيّةُ ؛ كونَها خُروجاً على الإجماعِ العربيِّ في الصِّراعِ العربيِّ الإسرائيليِّ ، فَجُمِّدَتْ عُضويّةُ مِصْرَ في جامعةِ الدُّولِ العربيّةِ ومؤسساتِها المختلفةِ ، وفي أُكتوبر عام ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م ، تمكّنَ أحدُ ضبّاط الجيشِ المصريِّ[2] مِنِ اغتيالِ «أنور السّادات» ، أثناءَ مُتابعتِهِ لعرضٍ عسكريٍّ في ذكرى العاشرِ مِنْ رمضانَ ، الموافق ١٩٨١/١٠/٦م .

وتولّى «محمد حسني مبارك» رئاسةَ مِصْرَ ، حيثُ كان نائباً للرئيسِ عام١٤٠٢هـ/١٩٨١م ، فأعادَ هيكلةَ اتفاقيةِ السّلامِ معَ إسرائيل ، مِمّا زادَ في

---

(١) كامب ديفيد : وقّعت هذه الاتفاقيّةُ عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م من قبَلِ كلٍّ من : محمد أنور السادات رئيس مصر ، ومناحيم بيغن رئيس وزراء الكيان الصهيوني ، وجيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة الأمريكيّةِ في واشنطن ، وعُرفت فيما بعد بـ «اتفاقية» «كامب ديفيد» نسبة لمكان المعسكر الذي عُقدت فيه ، ويسمى «بمعسكر داوود» للجيش الأميركي . حيث جعلت سيناء خاليةً من أية قاعدة جوية مصرية ، ومن سلاح المدرعات . انظر ، . عثمان العثمان : الاستراتيجية المطلوبة لإقامة الدولة الفلسطينية ، مؤسسة سندباد ، دمشق ، ط١٢ ، ٢٠٠٧م ، ص١٦٨ .

(٢) قاتل السادات ، هو المدعو : خالد الإسلامبولي ، أحد ضباط الجيش المصري ، وكان من تنظيم الجهاد الإسلامي برئاسة عبود الزمر ، اشترك في العرض العسكري بمناسبة العاشر من رمضان ١٣٩٤هـ / السادس من أكتوبر وأثناء العرض توقفت سيارة اللوري ونزل منها خالد الإسلامبولي ، وتقدم إلى المنصة ، بالرغم أن السادات وقف وظل يخاطب الإسلامبولي وقال له : يا ولد . . متبقاش مجنون . إلا انه أطلق عليه النار فأرداه قتيلا . انظر ، محمود فوزي : حكام مصر «السادات» ، مركز الراية للنشر والإعلان ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٧ ، ص١٨٩ .

التّقارُبِ بين الولايات المتحدة ومِصرَ ، وتمّتْ عَودةُ مِصْرَ إلى جامعةِ الدُّولِ العربيّةِ .

ثانياً : في الحالَةِ الاقتصاديّةِ

سادتِ البلادَ العربيّةَ أوضاعٌ اِقتصاديّةٌ مُترديّةٌ ، خِلالَ القرنينِ الثامنَ عشرَ والتاسعَ عشرَ ، والنِّصفِ الأوّلِ مِنَ القرنِ العشرينَ ، فإلى جانبِ الآثارِ التي تركَها الحصارُ الإسبانيُّ والبرتغاليُّ للسّواحلِ العربيّةِ ، وتحوُّلِ طُرُقِ التِّجارةِ الدَّوليّةِ ، إلى طريقِ رأسِ الرّجاءِ الصالحِ . عرفَتْ ميادينُ النّشاطِ الاقتصاديُّ سلسلةً مِنَ العواملِ الّتي عمّقَتْ أزمَةَ الاقتصادِ العربيِّ ، أهمُّها :

١- بدأتْ تَتَقلّصُ المِساحاتُ الزّراعيةُ : وقدْ نتجَ ذلكَ بسببِ الاضطراباتِ السّياسيَّةِ . كما زادتِ الهِجْرَةُ مِنَ الرّيفِ إلى المدينةِ بسببِ تَردّي النّاتجِ الزّراعيِّ .

٢- أخَذَ الإنتاجُ الاقتصاديُّ العربيُّ ، يتعرّضُ لمُنافسةٍ شديدةٍ : تمثّلتْ في الإنتاجِ الصناعيِّ الغربيِّ ، لا سيما في النّسيجِ والورقِ والحريرِ والصّابونِ والسُّكّرِ ومِلْحِ الطّعامِ ، ومِلْحِ البارودِ ؛ لأنَّ التّقدُمَ التّكنولوجيَّ في المصانعِ الأُوروبيّةِ دفعَ الإنتاجَ الأوروبيَّ إلى المُقدّمةِ ، وهذا ممّا أثّرَ سلْباً في القُدْرَةِ التّسويقيّةِ للمُنتجاتِ العربيّةِ .

٣- تفاقَمتْ الزّيادةُ في ضرائبِ الواردات : هذهِ السياسةُ الاقتصاديّةُ أدّتْ ، إلى انخفاضِ الواردات ، وتراجُعِ النّشاطِ التّجاريِّ .

٤- السّيطرةُ الاقتصاديّةُ : تعني ببساطَةٍ : (اكتفاءُ الدُّولِ القويّةِ بالاستيلاءِ على مواردِ البلادِ الضّعيفةِ ومرافقِها الاقتصاديّةِ ، معَ التّظاهُرِ بعدَمِ التّعرُّضِ لاستقلالِها وسيادتِها . مِنْ أمثلةِ ذلكَ : الحروبُ الصليبيّةُ الّتي كانتْ في ظاهرِها دينيّةً ، غايتُها : ـ كما يزعُمُ الأوربيُّونَ الصّليبيُّونَ ـ تخليصَ بيتِ

المقدسِ مِنْ أيدي المُسلمينَ [والقضاءَ على التطرّفِ والإرهابِ ثمّ ولادةَ شرقٍ أوسطيٍّ جديدٍ ، حَسَبَ المُواصفاتِ والاعتباراتِ الصّليبيّةِ الأمريكيّةِ الحديثةِ] ، بينما كانت في حقيقتِها سبيلاً للسّيطرةِ على الشرقِ الإسلاميِّ ، بما فيهِ من خيراتٍ اقتصاديّةٍ ، [ومِنْ هُنا يستنتجُ المرءُ] حقيقةَ التّبشيرِ [الصّليبيِّ الأمريكيِّ الجديد] ، إنّهُ ليسَ هُوَ الإصلاحُ والحياةُ الرُّوحيّةُ . [بلْ هُوَ الديمُقراطيّةُ المُشوّهَةُ العمياءُ] . إنّهُ هُوَ الإفسادُ والتّوسُّلُ إلى السيطرةِ)[1].

هذهِ النّقمةُ على الاقتصادِ الإسلاميِّ والعربيِّ ، ونَهْبِ ثرواتِهِ ، تَظْهرُ جَليّةً في سيطرةِ بريطانيا وفرنسا ، على شركةِ قناةِ السُّويسِ قبلَ تأميمِها في عامِ١٩٥٦م . إذ كانتا تَتقاضيانِ سنويّاً عشراتِ الملايينِ مِنَ الجُنيهاتِ رسوماً مِنَ السُّفنِ المارّةِ ، ولا يُدفعُ للمصريّينَ أصحابِ القناةِ إلا جزءاً ضئيلاً منها . كما يتَمَثّلُ النَّهْبُ أيضاً ، في الشّركاتِ الأجنبيّةِ : (التي تسيطرُ على إنتاجِ النّفطِ في الدُّولِ العربيّةِ ، إذ تتحكّمُ هذهِ الشّركاتُ في إنتاجِ البترولِ وبيعهِ بأسعارٍ تُحدّدُها بالدُّولار الأمريكي مثلاً . ولا تسمح . لبعضِ الأقطارِ المُنتجَةِ للبترول ، أنْ تُنفقَ حِصّتَها مِنَ الأرباحِ بطريقةٍ تنعكسُ عليها وعلى الدُّولِ العربيّةِ الأُخرى غيرِ المنتجةِ للبترول ، بالفائدةِ)[2].

وما زادَ الطّينَ بِلّةً ، تبعيّةُ الاقتصادِ العربيِّ وخُضُوعِهِ لتلبيَةِ حاجاتِ الدُّولِ الأوروبيّةِ في موادِّ الخامِ الأوليّةِ ، لا سيما بعد اندلاعِ شرارةِ الثّورةِ الصّناعيّةِ في القرنِ التاسعَ عَشَرَ في أوروبا ، ممّا دفَعَها إلى البحثِ عن هذهِ الموادِّ ، حيثُ وجدَتْ ضالّتَها المنشودةَ ـ في أفريقيا وآسيا عامّةً ، لا سيما العربيّةِ والإسلاميّةِ

---

(١) مصطفى خالدي وعمر فرّوخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربيّة ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦م ،

(٢) أريج غازي : تاريخ العرب والعالم المعاصر ، ص ٢٣-٣٠ .

منها خاصةً ـ مثلَ القُطنِ في مصرَ والصّمغَ في السودانِ ، والبترولَ بعدئذٍ في دول الخليجِ العربيّةِ والعِراقِ ، وبلادِ المغربِ العربيِّ ، والفوسفاتِ في الأُردنِ ، إلى غيرِ ذلكَ . مِنْ جهةٍ أُخرى أصبحتْ هذهِ البِلادُ أسواقاً ، لتصريفِ مُنتَجاتِ الثّورةِ الصّناعيّةِ الأوروبيّةِ .

ويُشكّلُ عَقْدُ السّتّينيّاتِ مِنَ القرنِ العشرين الميلاديِّ ، نُقطةَ تحوُّلٍ في الحياةِ الاقتصاديّةِ في مِصْرَ ؛ بسببِ ما قامتْ به الدّولةُ المصريةُ من (تأميمِ الشركاتِ الكُبرى والمصارفِ ، عامَ ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م [وفي هذهِ الآونةِ] ، تمَّ تنفيذُ مشروعِ السدِّ العالي ، والذي بدأتْ عملياتُهُ عامَ ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م ، وبدأ تشغيلُهُ عامَ ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م ، ممّا مكّنَ من تزايُدِ الإنتاجِ الزراعيّ كمّاً وكيفاً بمُعدلاتٍ كبيرةٍ .

[بالإضافة إلى توليدِ الطاقةِ الكهربائيةِ ، ذاتِ الضّغطِ العالِي ، فأسهمتْ بالتّطوُّرِ الصّناعيِّ ، وتسييرِ كثيرٍ منَ الآلاتِ ، وتعدّدتْ مصادرُ الإنارةِ ، وأوجدَت فُرصاً مُناسبةً للأيدي العاملةِ] ، وخلالَ الأعوامِ من ١٣٧١-١٣٨٩هـ/١٩٦١-١٩٦٩م صدرتْ قوانينُ الإصلاحِ الزّراعيِّ ، واتسعتْ دائرةُ الخدماتِ الصّحيّةِ والتّعليميّةِ . لكنّهُ عندما أُغلقَتْ قناةُ السُّويسِ عامَ ١٩٦٧م ، بأمرٍ من «جمال عبد الناصر» ، بسببِ العُدوانِ الإسرائيليِّ ؛ لذلكَ أُصيبَ الاقتصادُ المِصريُّ بشللٍ تامٍّ ، وتوقّفتْ أنشطتُهُ البحريّةُ . وحينَ أُعيدَ فتحُ قناةِ السّويسِ في يونيو عامَ ١٩٧٥م ، عادَتِ مِنْ جديدٍ الصّناعاتُ الإلكترونيّةُ ، والغذائيةُ ، والملابسُ الجاهزةُ ، والأنشطةُ السياحيّةُ ، وغيرُها)[١].

إنَّ الاستعمارَ الغربيَّ منذُ القرنِ التاسعَ عشرَ وهو يستهدِفُ المجتمعاتِ الإسلاميّةِ ، معَ التركيزِ على الاستغلالِ الاقتصاديِّ ، لا سيما الطّاقاتِ البشريّةِ ،

---

(١) أحمد مهدي محمد الشويخات : الموسوعة العربيّة العالميّة ، ص٧٦ .

كاستغلالِ طاقاتِ الفلاحينَ بأجورٍ زهيدةٍ ، في إنتاجِ ما يحتاجُ إليهِ من الموادِّ الأوليّةِ الهامّةِ والضّروريّةِ ، لتشغيلِ ثورتِهِ الصّناعيّةِ .

(ولكي يضمنَ المستعمِرُ حُسْنَ استغلالِ المُجتمعاتِ الإسلاميّةِ ، في الوطنِ الإسلاميِّ الممتدِّ مِنَ المغربِ إلى أندونيسيا ، والّذي تُشكّلُ ثروتُهُ مِنَ المعادنِ وإنتاجِ الزّراعةِ والحيوانِ تكاملاً اقتصادياً : أبقى على انخفاضِ مستوى المعيشةِ بينِ الفلاحينَ ، وهُمُ الّذينَ يُمثّلونَ اليدَ العاملةَ في البلادِ آنذاكِ . . . . وعلى سوء توجههم في اعتقادِهم في الخُرافةِ أو في تواكُلِهم . . كما أبقى على أُمّيّتِهم في القراءةِ والكتابةِ)[1].

مِنَ الملحوظِ أنَّ المُجتمعاتِ العربيّةِ والإسلاميّةِ تحتَ نيرِ الاستعمارِ الغربيِّ ، ازدادتْ فقراً وجهلاً وسوءَ حالٍ في وضعِهمُ الصِّحيِّ . هذا ما كانَ يصبو إليهِ المستعمِرُ في تحقيقِ هدفِهِ في الإنتاجِ الوفيرِ ، قليلِ التّكلُفةِ . وابتُليَ الكثيرُ من بلادِنا العربيّةِ والإسلاميّة بالفلسفةِ الاقتصاديّةِ الغربيّة «الرأسماليّة الليبراليّة»[2] أو الشرقيّةِ «البُلشفيّة الاشتراكيّةِ أو الشيوعيّة الماركسيّة»[3].

---

(١) محمد البهي : الإسلام في حلِّ مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ط١ ، ١٤٠١ هـ/١٩٨١م ، ص١٢٨

(٢) الرأسماليّة الليبراليّة : النظام الرأسمالي أو الليبرالي : هو فلسفة مالية اقتصادية انتشرت في أوروبا الغربيّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ولا تزال مستمرةً حتى يومنا هذا ، حيثُ انتهى حكم أرستقراطيّة النبلاء ، وقامت الثورة الصناعية والعلمانية ؛ ممّا أدّى إلى تحديد مسؤوليات الكنيسة وفصل الدين عن الدولة ، وأصبح الحكم طبقيّاً أي : حكم الأثرياء بأموالهم ، وحكم العمّال بكدهم وسواعدهم ، أو ما يُدعى بالرأسمالية الليبرالية ، بمعنى المال والعُمّال ، انظر ، المرجع السابق ، ص٦١.

(٣) البُلْشَفيّةُ : هي أغلبية الحزب الديمقراطي الروسي سنة ١٩١٧م [بعد الثورة الروسية] بقيادة لينين ، وكان هدفها الأول الاستيلاء على السلطة ، ثم سميت باسم --

وممّا يُؤخَذُ على النِّظامِ الرأسماليِّ الليبراليِّ ، طُغيانُ المالِ وسيطرتُهُ على كلِّ شيءٍ ، حيثُ أحالَ المُجتمَعَ العاملَ إلى أرقّاءَ محرومينَ كُلَّ وسائلِ العدالةِ والكرامةِ . بينما الاشتراكيةُ البُلشفيةُ : تعني السيطرةُ على الملكيّةِ الخاصّة وتحويلُها إلى مِلكيّةٍ عامّةٍ ، (والمجتمعُ المصريُّ [عندما بدأ] يأخذُ بنظامِ القطاعِ العامِّ [وتحويل الأملاك الخاصة] عن طريق الحراسةِ .. أو التأميم .. أو الإصلاحِ الزراعيِّ منذُ مايو سنة ١٩٦٢م ، ومايبدو من حوادثِ هذا القطاعِ ، وأحداثِهِ بينَ الحينِ والحينِ .... يدلُّ على أخطائهِ الجسيمةِ في تخلُّفِ الاقتصادِ القوميِّ .. كمّاً .. ونوعاً ، بسببِ ما يقعُ فيهِ من إهمالٍ .. وتواكُلٍ .. واستغلالٍ .. وسوءِ إدارةٍ ؛ لأنه أُبعِدَ عنها : المالكُ الخاصُّ .. والنّشاطُ الفرديُّ في استثمارها)[1].

--اللينينية فالاستالنية [نسبة إلى لينين وستالين أحدي مؤسِسيها] ، وحلّت الشيوعية أخيراً محلها ، فهي المرحلة الأولى من مراحل تطور الاشتراكية في روسيا . انظر ، إبراهيم مدكور : المعجم الوجيز ، ص٦١ . كارل ماركس : (١٨١٨-١٨٨٣م) يهودي الأصل ولد في بلدة « تراثر » إحدى مقاطعات « رائن » في ألمانيا ، أخرج الاشتراكية من الناحية الاقتصادية المحضة وجعلها نظاماً مستقلاً للحياة [كما يزعم] وقد بلغ من حُبِّ الاشتراكيين وإكرامهم له إلى أن جعلوه إلهاً كما أعطوا للينين مرتبة النُّبوّةِ . وتعرف الشيوعية الاشتراكية الماركسية بالبلشفية [وانقسم أعضاؤها] بخصوص منهجها للعمل . . إلى فريقين ، فريق يتحاشى فكرة الثورات الدامية وسُميَّ « بالمنشويك » أي الأقلية ، لقلة أعضائها بالنسبة للفريق الثاني الذي سُميَّ « بالبلشفيك » ، أي الأكثرية ، وتزعمّه لينين . انظر ، مسعود الندوي ، تعريب صهيب حسن عبد الغفار : الاشتراكية والإسلام ، مطبعة المدينة ، الرياض ، ط ١، ١٣٩٩ هـ ، ص٢٣-٣٨.

(١) محمد البهي : الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، ص٢٠٩ .

بذلكَ كُشِفَ السِّتارُ عنِ الرأسماليّةِ ونظامِها الاقتصاديِّ المُستهتِرِ بالفردِ والطّبقةِ العاملَةِ . بينما كانتِ الفلسفةُ الاشتراكيّةُ ، المُمهِّدةُ للماركسيّةِ ، بمثابةِ ردودِ فعلٍ لِقَسوةِ النظامِ الرأسماليّ ، كما يزْعُمُ كارلُ ماركس وغيرُهُ من زعماءِ النّظامِ الاشتراكيِّ .

لكنَّ النّظامَ الاشتراكيَّ : مسخَ إنسانيّةَ الإنسانِ وألغى فطرتَهُ ؛ إذْ جعلَهُ أداةَ إنتاجٍ لمصلحةِ الطّبقةِ الحاكمَةِ ، وفْقَ الفلسفةِ الاشتراكيّةِ وتعاليمها ، ولكن بعد أن دخلَت الاشتراكيّةُ مجالَ التطبيق ، (أخذَ هذا النّظامُ الاشتراكيُّ يُهدِّدُ بدعوتهِ النّظامَ الرأسماليَّ في صِلَةِ أصحابِ رؤوسِ الأموالِ بعمّالِ المصانعِ وغيرِها ..... استجابَ النّظامُ الرأسماليُّ لمطالبِ العُمّالِ ... فيما يُسمّى : بالرِّعايةِ الاجتماعيّةِ ، والصحيّةِ ، تتمثّلُ هذهِ الرّعايةُ في صنوفِ التأميناتِ المختلفةِ ، [وفي واقعِ الأمرِ أنّ النظامَ الرأسماليَّ عندما توسّعَ في مجالاتِ التأمينِ إلى حمايةِ العُمّالِ وذويهم ليس] طواعيةً للفلسفةِ الاشتراكيّةِ . . . . ولكن كُرهاً وتحتَ ضغطِ التجمُّعاتِ العُمّاليّةِ في النّقاباتِ وتهديداتِهم على الأقلِّ في الانقطاعِ عنِ العملِ لفترةٍ أو لفتراتٍ ، ..... [وهذا] يتسبّبُ عنهُ حتماً انخفاضُ الإنتاجِ وتقليلُ الرِّبحِ . . ممّا يُضادُّ هدفَ الرأسماليّةِ ويعوقُها عن النشاطِ والحركةِ)[1].

أهدافُ الفلسفةِ الرأسماليّةِ والاشتراكيّةِ أصبحتْ واضحةً ، إذْ تتمثّلُ بالحياةِ الاقتصاديّةِ الاستثماريّةِ المادّيّةِ المحضةِ ، التي تقومُ على المنافعِ المُتبادَلَةِ ، بعيدةً عن القيمِ والمُثُلِ العُليا . والإنسانُ في النظامين أداةُ تنفيذٍ ، أو كَتُرسٍ في آلةٍ ضارّةٍ .

---

(١) محمد البهي : الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر«مشكلات الأسرة والتكافل» ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص٣٢٧ ، ٣٢٨.

ثالثاً : في الحالة الاجتماعيّة

ورِثَ القرنُ التاسعَ عشرَ وأوائلُ القرنِ العشرينَ كثيراً من البدَعِ والخُرافاتِ ، التي أثّرتْ تأثيراً سَلبيّاً في الحياةِ الاجتماعيّةِ في مِصْرَ ؛ حيثُ إنّها مِنْ مُخلّفاتِ عُهودٍ مُختلفةٍ لا سيما في عهدِ المماليكِ .

انتشرَ ـ والحالُ هكذا ـ الفهمُ الخاطئُ لعقيدَةِ القَضاءِ والقَدَرِ[1]، وانحرفَتْ بعضُ الطُّرُقِ الصُّوفيّةِ عنْ طريقِ التَّصوُّفِ الصّوابِ نتيجةَ (تسلُّطِ الفِرَقِ الصُّوفيَّةِ على الحياةِ العقليّةِ والثّقافيّةِ والاجتماعيّةِ ، وسادَ فَهمٌ خاطئٌ لعقيدةِ القضاءِ والقَدَرِ . إذْ أصبحتْ مُرادِفَةً للجبريّةِ[2] وانعدامِ الإرادةِ والاختيارِ . . . ، واحتقارِ

---

(١) عقيدة القضاء والقدر : القضاءُ لُغةً : الْحَتْمُ والأمْرُ ، وهي مصدر قضى . والقضاءُ بالمدِّ ، معناهُ اللُّغويُّ الجامعُ هو : إتمامُ الشيءِ وإمضاؤُه وإتمامُه ، قولاً كان أو فعلاً ، أو إرادةً أو غيرها . القضاءُ شرعاً : إرادةُ اللهِ تعالى الأزليّةِ ، المُتعلقَةِ بالأشياءِ ، على وفقِ ما توجدُ عليهِ ، في وجودِها الحادِثِ . والقَدَرُ والقَدْرُ لُغةً : بمعنىً واحدٍ ، وقَدَرُ اللهِ وقَدْرُه بمعنًى ، وهو في الأصلِ مصدرٌ . والمقاديرُ بمعنى لكُلِّ شيءٍ مِقدارٌ ، وهو مبْلَغُ الشيءِ . القَدَرُ تعني : القَضاءُ الموفّقُ . القَدَرُ شرعاً : إيجادُ اللهِ تعالى الأشياءَ ، على مقاديرِها المُحدَّدَةِ بالقضاءِ ، في ذواتِها وصفاتِها ، وأفعالِها وأحوالِها ، وأزمنتِها وأمكنتِها وأسبابِها . معنى القضاء والقدر معاً : هو إرادةُ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى ، إيجادُ الأشياءِ على وجهٍ مخصوصٍ ، ثُمَّ يكونُ إيجادُها فعلاً على وفقِ المُرادِ . انظر ، محمد بن مكرم بن منظور « ٦٣٠-٧١١هـ» : لسان العرب ، دار إحياء التراث العربي ، ج١١ ، ط٣ ، لا . ت ، ص٥٥-٥٩ ، ٢٠٦ . وانظر ، عبد الرحمن حسن حبنّكة : العقيدة الإسلاميّة وأُسُسِها ، دار القلم ، دمشق ، ط٧ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م ، ص ٦٢٦، ٦٢٧ .

(٢) الجبريّةُ : فِرقةٌ [من الفِرَقِ الإسلاميّةِ] ، ترى أنّ الناسَ مُجْبَرُونَ على أفعالِهم لا اختيارَ لهم فيها . والجبريّةُ مذهبُ مَنْ يرونَ ، أنَّ الإنسانَ مجبورٌ في أفعالِهِ ، ، لا اختيارَ له ولا قُدرةَ ، وأنّهُ كالرِّيشَةِ المُعلّقَةِ في الهواءِ . قد نفى هذا المذهبُ القُدرةَ الإنسانيّةَ والاستطاعةَ ، فليس للإنسانِ في نَظَرِهِ ، قُدْرَةٌ ولا إرادةٌ ولا اختيارٌ . انظر ، إبراهيم مدكور : المعجم الوجيز ، ص٩١. وانظر ، عرفان عبد الحميد : دراسات في الفِرق والعقائد الإسلاميّة ، مؤسسة الرِّسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٤م ، ص ٢٦٣.

العملِ والعلْمِ والعقلِ، فكانَ هذا مِنْ أسبابِ الرُّكودِ والكسَلِ والاستسلامِ للظُّلمِ، الّذي رانَ على الحياةِ في مِصْرَ في ذلكَ العهدِ، بالإضافةِ [إلى أنَّ] عدداً من كُتّابِ أُوروبا ومُفكّريها[1]، [لا سيما] المُرتبطينَ [منهُم] بحركةِ الاستعمارِ . . . قد ظنُّوا أنّ أفكارَ المُسلمينَ وأعمالَهُم هذهِ هيَ الإسلامُ [بعينِهِ، واتخذوها] حُجّةً على الإسلامِ، غيرَ عالمِينَ أنّ الإسلامَ بريءٌ مِن هذهِ الأعمالِ، وأخَذَتِ الصّحافةُ الإسلاميّةُ على عاتِقِها أنْ تُبطِلَ . . . الآراءَ غيرَ الصّحيحةِ، عن عقيدَةِ القضاءِ والقَدَرِ في الإسلامِ، وتُبيِّنُ أنّها مصدرُ قوّةٍ وشجاعةٍ للمُسلم)[2].

فلا غروَ في ذلكَ؛ لأنَّ المرءَ الذي يعتقدُ بأنَّ الأجلَ محدودٌ، والرِّزقَ قد تكفّلَ به الخالقُ سبحانَهُ منذُ الأزل، فهو لا يتوانَى في الدِّفاعِ عنْ حقِّهِ؛ لأنّهُ تتولّدُ لديهِ قناعةُ عدمِ الرَّهبةِ مِنَ الموتِ، فلا يخشى في اللّهِ لومَةَ لائمٍ، ويكتسِبُ عندئذٍ صفاتٍ إيمانيّةً مثلَ: الإقدامِ، الشّجاعةِ، السّخاءِ، والعطاءِ.

هكذا بدأتْ حركةُ التّجديدِ والإصلاحِ الإسلاميِّ والمصريِّ بقيادةِ، «جمال الدِّين الأفغانيّ»، و«محمد عبده»، و «رشيد رضا»، و «محمد مصطفى المُراغي»، وغيرِهِم، ثُمَّ «محمد البهي» في كتابِهِ: «الفكرُ الإسلاميُّ الحديثُ وصِلتُهُ بالاستعمارِ الغربيِّ».

لذلكَ نهَضَتْ حركةٌ اجتماعيّةٌ تدعو إلى إصلاحِ المناهجِ والمساجدِ، حيثُ

---

(١) من هؤلاء الكُتّابِ والمُفكّرينَ الأوروبيين «مسيو هانوتو» وزير خارجيَة فرنسا سابقاً، في مُناظرتِهِ الشّهيرَةِ، للشيخ «محمد عبده»، انظر، جريدة المؤيد، من مقال مسيوهانوتو، القاهرة، ترجمة الجزء الأول، في ١٥ إبريل سنة ١٩٠٠م.

(٢) سامي عبد العزيز الكومي: الصحافة الإسلاميّة في مصر في القرن التاسع عشر، دار الوفاء، المنصورة، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص١٥٥، ١٥٦.

شاعَ في بعضها ما يُسمى : بالرُّقى[1] والتّمائم[2] والعرّافين[3]، على أيدي غُلاةِ الصُّوفيّةِ ، الّذين يُبشّرونَ النّاسَ بقضاءِ مصالحهم . فانتشرت الخُرافةُ بينَ الكثيرينَ مِنَ الرِّجال (والنساءِ من مُدّعياتِ الولايةِ ، [إذْ] يَقُمَنَ بأعمالَ فاضحةٍ في مُخالَطَةِ الرِّجالِ ، وقد ارتفعَ عنهُنَّ بُرقُعُ الحياءِ ، والبياتِ في المساجد والعزفِ والتطريبِ ، ودقِّ الطُّبولِ في الذِّكرِ . والتّشويشِ على المُصلّينَ)[4].

فالذي يزورُ مِصْرَ اليوم قدْ يَرى رأيَ العينِ ، بعضَ العاداتِ الاجتماعيّةِ الموروثةِ الضّالّةِ ، كالطّوافِ حولَ مقصورةِ السّيد «البدويِّ» وقبرِ السيد «الحسين بن علي» ، والطّلبِ إليهما مُعتقدينَ أنّهُم يقدرُونَ على كلِّ شيءٍ ، ويُعَدُّ هذا انحرافٌ خطيرٌ في العقيدة ، بل شِركٌ أكبرُ ؛ لذا قدَّمَ بعضُ المُصلحِينَ في مِصْرَ مُقْتَرَحَيْنِ هامَّيْنِ هُما :

---

(١) الرُّقى : مفردها رُقيةٌ وهي العُوذةُ التي يُرقَى بها المريضُ ونحوهُ [ومنها الشرعيّةُ من القرآن والسُّنّةِ ، ومنها طلاسمُ وكلماتٌ غير مفهومة وليست شرعيةً] ، انظر ، إبراهيم مدكور : المعجم الوجيز ، ص٢٧٥ .

(٢) التّمائمُ : مفردها تميمةٌ وهي ما يُعلّقُ في العُنُقِ لدَفعِ العين ، أو عُوذَةٌ تُعلّقُ على الإنسان . وفي الحديث «من علّقَ تميمةً فلا أتمَّ اللهُ لهُ» ، قيلَ هي خرزةٌ ، وأمّا المعادنُ إذا كُتِبَ فيها القرآنُ وأسماءُ الله تعالى فلا بأسَ بها . انظر ، المرجع السابق ، ص٧٨ . وانظر ، محمد بن أبي بكر الرازي : مختار الصّحاح ، تعليق محمود خاطر ، ص٧٩ .

(٣) العرافون : مفردها العرّافُ وهو المُنَجِّمُ ، والعِرافةُ : هي حِرفةُ العرّافِ . انظر ، إبراهيم مدكور : المعجم الوجيز ، ص٤١٥ .

(٤) رشيد رضا : مجلة المنار« مقال بعنوان الموالد» ، العدد الخامس ، القاهرة ، في ١٢إبريل سنة ١٨٩٨م ، والعدد السادس ، في مقال آخر بعنوان «منكرات الموالد» ، في ١٩ إبريل سنة ١٨٩٨م .

١- تكوينُ لجنةٍ برئاسةِ شيخ الأزهر [يومذاك] : لمنع كلِّ من يخالفُ الشّرعَ والآدابَ الإسلاميّةَ .

٢- الوعظُ ، والتعليمُ ، والخِطابةُ والإرشادُ : [بأنْ يتمَّ التّركيزُ فيها ، على دَحْضِ ما طرأ على الشّريعَةِ الإسلاميّةِ ، مِن افتراءاتٍ اجتماعيّةٍ ، أوْ أعمالٍ شَعْوَذَةٍ . وتجليَةِ الأحكامِ الشّرعيّةِ ، وتوضيحِ مقاصِدِها ، لعامّةِ النّاسِ وخاصّتِهم . كما تصدّتِ الصّحافةُ المصريّةُ ، في وجْهِ تلكَ الانحرافاتِ لمُعالجتها] . كانتِ المدرسةُ الصّحفيّةُ الأولى في مِصرَ مِنْ لدُن «رفاعة الطهطاوي» ، والمدرسةُ الثانيَةُ مِنْ لدُن «محمد عبده» وزملائِهما [قد] نَزَلتا إلى ميادين الإصلاحِ الاجتماعيِّ ، لمُحاربةِ عاداتِ المآتمِ ، والمُغالاةِ في الأكفانِ واتخاذِها من الخَزِّ والحريرِ ، وتأخيرِ ميّتِ القومِ الأغنياءِ يومينِ أو ثلاثةٍ حتى يُدفنَ ، واستئجارِ النّادباتِ ونساءِ التّعزيةِ اللاتي يأتينَ بأفعالَ يشيبُ لها الولدانُ ، ثمَ التّنفيرِ من عاداتِ الحشيشِ ومضّارِه[1].

لاحَتْ في أُفُقِ تلكَ الفترَةِ ، الاتجاهاتُ الاجتماعيّةُ الانشطاريّةُ الواسعةُ ، كالمُجتمعِ الرّيفيِّ ، الحضريِّ ، العائليِّ ، الثّقافيِّ ، السّياسيِّ ، الاقتصاديِّ ، الدّينيِّ ، التّاريخيِّ ، الجُغرافيِّ ، وغيرِها في العالمِ العربيِّ والإسلاميِّ عامّةً ، (حيثُ حاولَ الغربُ نشرَ هذهِ النّظرياتِ الاجتماعيّةِ ، في المُجتمعاتِ الإسلاميّةِ ، لا بهدَفِ تثقيفِ هذهِ المُجتمعاتِ كما يُقالُ . بل بهدفِ بلبلةِ العقلِ وإثارةِ الفكرِ ؛ ذلكَ أنَّ المدارسَ هذهِ لا تُقدِّمُ وجهةَ نظرٍ واحدةٍ ، إنّما . . . مئاتُ وآلافُ الاتجاهاتِ الاجتماعيّةِ المُتناقضةِ)[2].

---

(١) رشيد رضا : مجلة المنار ، العدد الخامس والسادس ، وانظر ، محمد عبده : الوقائع المصرية «مقال بعنوان الحشيش» ، القاهرة ، ١٦ إبريل سنة١٨٨١م .

(٢) سعد الدين السيد صالح : بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي «دراسة مقارنة» ، مكتبة الصحابة ، جدة ، السعوديّة ، ١٤١٤ هـ/١٩٩٣م ، ص٦٧ ، ٦٨ .

نَشِبَتِ الخِلافاتُ الفكريّةُ حيناً والصِّراعاتُ الدّمويّةُ أحياناً ، بين تلك الفئات الاجتماعيّةِ ، وبلغَتْ أوجهَا وأشُدَّها في العَقْدَيْنِ : الخامسِ والسادسِ مِنَ القرنِ العشرين ، كنتيجةٍ للغزوِ الفكريِّ الاجتماعيِّ الغربيِّ لبلادِنا العربيّةِ والإسلاميّةِ . وقامتْ في المُقابلِ المدرسةُ الإسلاميّةُ المُعاصِرةُ في علمِ الاجتماعِ (بزعامةِ المرحومِ الشيخ «سيِّد قُطُب» ، وأخيهِ العلاّمةِ «محمد قُطُب» . . . فكتبَ الشيخُ «سيِّدُ قُطُب» كثيراً مِنَ الكُتُبِ التي هَدَمتِ الأُسُسَ التي قامتْ عليها الاتجاهاتُ الاجتماعيّةُ الغربيّةُ ، وأهمُّها : «في ظلالِ القرن» و«المُجتمعِ الإسلاميِّ» . كما كتبَ الشيخُ «محمد قطب» كتابَهُ القيِّمَ «الإنسانُ بينَ الماديّةِ والإسلامِ»، وكتاب: «التّطورُ والثّباتُ في حياةِ البشريّةِ» ، وهما من أهمِّ ما كُتِبَ في هدمِ النّظرياتِ الاجتماعيّةِ الغربيّةِ)[1].

ثمّ تطورتِ المدرسةُ الاجتماعيّةُ الإسلاميّةُ الحديثةُ ، وكتبَ فيها كثيرٌ مِنَ المُفكرينَ[2] كُتُبَهُم ، وغيرَ ذلك مِنَ الأبحاثِ القيِّمةِ ، الّتي يُمكنُ أنْ يُستنبَطَ مِنْ خلالِها عِلْمُ اجتماعٍ إسلاميٌّ لهُ خصائصُهُ وميزاتُهُ التي تُميِّزُهُ عَنْ عِلْمِ الاجتماعِ الوضعيِّ .

رابعاً : في الحالة الثقافيّة

التربيةُ والتعليمُ حاجةٌ ضروريّةٌ في حياة الشُّعوبِ والأُممِ ، كحاجتِهم للطعامِ والشَّرابِ سواءٌ بسواءٍ ؛ فإذا كانَ الطعامُ والشَّرابُ يُساعدانِ في بناءِ المادةِ في الإنسانِ وهو الجسدُ ، فإنَّ الثقافةَ الخاصّةَ والعامّةَ والتّربيّةَ السّويّةَ الهادفةَ ، تصقُلُ الجانبَ الرُّوحيَّ في الإنسانِ ، مِمّا يجعلُهُ ينهضُ في بناءِ حضارةٍ علميّةٍ

---

(١) سعد الدين السيد صالح : بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي ، ص٦٨ .

(٢) المرجعُ السابقُ .

عالميّةٍ ، تقومُ على التطوُّر المعرفيِّ المُنظّمِ ؛ لأجل هذا فَطِنَ المُبَشِّرونَ الغربيّونَ وأعوانُهُم مِنْ بَنِي جِلْدَتِنا ، إلى تشجيعِهِمُ اللُّغةَ العاميّةَ ، وذلكَ بين الحربِ العالميّةِ الأولى والثانيّةِ ، ما بين ١٩١٩-١٩٤٥م .

استمرَّ التآمُرُ أيضاً بعدَ الحربيْنِ العالَميَّتَيْنِ ، على الثّقافةِ الإسلاميّةِ واللُّغةِ العربيّةِ ، خاصّةً أثناءَ فترات الاستعمار ، بأنواعِهِ : السِّياسيِّ ، الاقتصاديِّ ، العسكريِّ ، والثّقافيِّ . رمياً إلى تفكيكِ وحْدَةِ العالمِ الإسلاميِّ ؛ لذا فإنَّهُم درسوا العالمَ الإسلاميَّ من جميعِ جوانِبِهِ ، ثُمَّ وضعوا خِطَطَهُم في سبيلِ القضاءِ على كلِّ مَناعةٍ أوْ مُقاوَمَةٍ فيهِ (لقدِ استغلُّوا في سبيلِ مآربِهِم كُلَّ وسيلةٍ ، مِنَ العِلْمِ والطِّبِّ والسِّياسَةِ والحياةِ الاجتماعيَّةِ والثّقافةِ والأدبِ واللُّغَةِ .

لقدْ حَرَصُوا على أنْ [يَسرِقُوا مِنَ] الإسلامِ كلَّ مَناحي الشَّخصيَّةِ ، وكلَّ أسبابِ الحياةِ . . . لقد ظلَّ العالَمُ الإسلاميُّ يستَمِدُّ الحياةَ مِنْ ثقافتِهِ ، الّتي ما زالتْ حيّةً تُنيرُ العالَمَ مُنْذُ [أكثَرَ مِنْ ألفٍ وخمسِمائةِ عامٍ] . رأى المُبشِّرونَ والمُستَعْمِرونَ عَظَمَةَ الثّقافةِ العربيّةِ الإسلاميّةِ ، وأنّها مصدرُ عِزَّةٍ للشرقِ وللعربِ والمُسلمينَ ، ثمَّ إنَّهُم أيقَنُوا أنَّ أُمَّةً لها هَذِهِ الثقافةُ لا يُمكِنُ أنْ تخْنَعَ أو تذِلَّ أو تبيدَ)[1].

منذُ انتهاءِ الحربِ العالميّةِ الأولى والمُبشِّرونَ يسعَونَ إلى استغلالِ الكثيرِ مِنْ وسائلِ الثّقافةِ وأهدافِها وأساليبِها ، وأدواتِ التنفيذِ فيها ، كالمدارسِ والجامعاتِ ، والأنديَةِ ، والصّحافةِ وغيرها ، مثلِ الكشّافةِ والمُخيماتِ ، مع التركيزِ على العملِ والتّعليمِ بينَ التلاميذِ والطُّلابِ ؛ للأهميّةِ البالغةِ التي تكمُنُ في تشكيلِ عقليّةِ المُتعلِّمِيْنَ وأخلاقهم ، لاسيَّما الصّغارِ والصّغيراتِ مِنْهُم على حدٍّ سواءٍ ،

---

(١) مصطفى خالدي وعمر فرُّوخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٢١٧،٢١٨.

(وفي عام ١٩٣٥م نظّمتْ مُؤسَّسَةُ «الحُزمةِ المغربيَةِ» ، بالتّعاونِ معَ اللجنةِ التّبشيريّةِ لشُبّانِ فَرنسا ، مُخيماً تبشيرياً ، نُقِلَ بعدَ مُدّةٍ إلى جنوبيِّ الجزائر . وقدِ اشتركَ في هذا المُؤتَمرِ التّبشيريِّ ستونَ زعيماً مِنْ زُعماءِ حُزمةِ التبشيرِ في فرنسا وسويسرا) [١].

هكذا يبدُو جَليّاً أنَّ جميعَ أعمالِ الثّقافةِ والبِرِّ والإحسانِ ، التي يقومُ بها المُبشّرونَ ، إنّما هيَ وسائلُ تبشيريّةٌ ، ليتسرّبَ الاستعمارُ الغربيُّ إلى شُعوبِنا الشّرقيّةِ ، وينهبَ خيراتِها تحتَ شعارِ الاستعمارِ .

الذي وصلَ وسينتهي إلى الدّمارِ والخرابِ ، وليسَ للإصلاحِ والبناءِ ، وبدأتِ الدّعوةُ إلى خَنْقِ اللُّغةِ العربيّةِ الفُصحى ، وإحلالِ العاميّةِ مكانها ، وذلك في عهدِ الاحتلالِ الإنجليزيِّ لِمِصْرَ (حينَ دعا «وليم ولكوكس»[٢] إلى هَجْرِ اللُّغةِ العربيّةِ ، وخطا إلى ذلكَ خَطْوةً عمليّةً ، حيثُ ترجمَ أجزاءَ مِنَ الإنجيلِ بما سمّاهُ «اللُّغةَ المِصريّةَ ، . . . . . وبالرُّغْمِ مِنَ المُقاوَمَةِ الّتي لَقيَتْها هذهِ الدّعوةُ في مِصْرَ ، على مُختلفِ المُستوياتِ إلاّ أنّها استطاعتْ بإلحاحٍ وإصرارٍ ، أنْ تجتذِبَ نَفَراً مِمّنْ يُسَمَّوْنَ دُعاةَ التّجديدِ ، من أمثالِ «سلامة موسى»[٣] و«طه

---

(١) سعد الدين السيد صالح : بين علم الاجتماع الإسلامي وعلم الاجتماع الغربي «دراسة مقارنة» ، ص٢١٥ .

(٢) وليم ولكوكس : كان يعملُ مهندساً للريِّ في مصر عام ١٩٢٦م ، أثناءَ الاستعمار الإنجليزي ، وهو من أصلٍ إنجليزي ، انظر ، يحيي هاشم حسن فرغل : في الفكر الإسلامي ، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة ، العين ، لا . ط ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص٥٤٥ .

(٣) سلامة موسى : (١٨٨٧-١٩٥٨م) كاتب مصري[تعلّمَ في فرنسا] ، كان من دُعاةِ التجديد في مصر ، من أنصار حرية المرأة ، والدعوة إلى اللهجة العاميّة المصريّة لتحلَّ مكانَ اللغةِ العربية في دور العلم ، منذُ عام ١٩٢٦م ، [وهو] أديب وصحفي ، من أنصار العلوم الحديثة ، امتاز بثقافة واسعة ، مال إلى الاشتراكيّة له مؤلفات كثيرة منها «نظرية التطور» ، «أحلام الفلاسفة» ، «الأدب والحياة» ، أنشأ المجلة الجديدة عام ١٩٢٩م . انظر ، في الفكر الإسلامي ، ص٥٤٥ .

حسين» . . . . ثمَّ اتّخذتِ الدَّعوةُ [للعاميّةِ] في الانتشارِ الفعليِّ ، [حينَما غَدَتْ] لُغةً للمسرحِ والسِّينما منذُ أعقابِ الحربِ العالميّةِ الأولى إلى اليومِ ، ولم يعُدْ لِلُّغةِ العربيّةِ الفُصحى وجودٌ في هذا الميدانِ إلاّ نادراً ، وانتقلت عدوى العاميّةِ إلى جامعةِ الدُّولِ العربيّةِ ذاتِها ، حيثُ أصدَرت لجنتُها الثقافيّةُ عامَ ١٩٥٥م كتاباً في اللهجاتِ[١] وأسلوبِ دراستِها ، ثمّ تقدَّمَ عُضوٌ[٢] مِنْ أعضاءِ المجمعِ اللُّغويِّ ، باقتراحِ كتابةِ العربيّةِ بالحروفِ اللاتينيّةِ ، والغريبُ أنّ المجمعَ شُغِلَ ببحثِ اقتراحِهِ عدّةَ جلساتٍ ، امتدت خلالَ ثلاثِ سنواتٍ)[٣].

يُلحَظُ بأنّ هؤلاءِ جميعاً ، بدَعَواتِهِمُ المسْعورةِ ، يدُورُونَ حولَ غايةٍ واحدةٍ ، هيَ القضاءُ على اللُّغةِ العربيّةِ ؛ لكي تُصبحَ لُغةً تاريخيّةً فقط . لكنَّهُم يختلفونَ في التّفاصيلِ ، فمِنْهُم مَنْ يدعُو إلى العاميّةِ دعوةً صريحةً ، وبعضُهُم يدعو إلى التّوسُّطِ بين الفُصحى والعاميّةِ ، وآخرُ يُلمِّعُ دعوتَهُ تحتَ سِتارِ تطويرِ اللُّغةِ العربيّةِ ، لتُواكِبَ الحضاراتِ الغربيّةِ كما يَزْعُمُونَ .

الردُّ الموضُوعيُّ على هذهِ الادِّعاءاتِ : هو أنَّ المسلمينَ لا يستغنُونَ عَنِ الفُصحى ؛ ليتمكّنُوا مِنْ قراءةِ القُرآنِ الكَريمِ ، والحديثِ الشّريفِ ، وسائرِ تُراثِهِم وكُتُبِهِم ، لا سيما الدِّينيَّةِ مِنها ، والأدَبيّةِ الثّقافيّةِ .

---

(١) كتاب في اللهجات : وضعَ هذا الكتابَ « أنيس فريحة » جُمِعَتْ فيهِ المُحاضراتُ التي ألقاها ، في معهدِ الدراساتِ العربيّةِ عام ١٩٥٥م ، وهو من دُعاة التجديد في اللغة العربيّة على نهج المستشرقين . انظر : يحيي هاشم حسن فرغل : التحديات في مجال اللغة العربيّة الفصحى والأدب ، والفن ، والأخلاق ، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة ، لا . ط ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص٥٤٦ .

(٢) عضو من أعضاء المجمع : هو عبد العزيز فهمي ، حيث كان عضواً في مجمع اللغة العربيّة ، [وقدّمَ اقتراحه المذكور آنفاً] في عام ١٩٤٣م . انظر ، يحيي هاشم حسن فرغل : التحديات في مجال اللغة العربية الفصحى ، ص٥٤٦ .

(٣) المرجع السابق نفسُه .

إنّ اللُّجوءَ إلى العاميّةِ ، يؤدّي إلى تنوُّعِ اللَّهَجاتِ : بينَ عاميّةٍ شاميّةٍ ، ومِصْريّةٍ ، ومغربيّةٍ ، وسودانيّةٍ ، وخليجيّةٍ ، وهذا يُؤدي إلى صُعوباتٍ شديدةٍ في التخاطُبِ بينَ أهلِ اللُّغةِ الواحدةِ ، فيفترقونَ ويختلفُونَ ويبتعدُونَ ، عَنْ وِحْدَتِهِمُ العربيّةِ والإسلاميّةِ . ولم يَقِفِ الأمرُ عند التلميحِ الخفيِّ بل تعدّاهُ إلى التّصريحِ الجليِّ ، فيما كتَبَهُ «طه حسين» عامَ ١٩٢٦م ، إذْ يقولُ : (بالدّعوةِ إلى التّحرُّرِ ، مِنْ تعاليمِ الأديانِ المُختلفةِ ، وروايةِ القَصصِ الدِّينيَّةِ على أنّها أساطيرُ خياليّةٌ ، والتّشكيكِ في كُلِّ ما يخرُجُ ، عنْ دائرَةِ المحسوس .

يجبُ حينَ نستقبلُ البحثَ عنِ الأدبِ العربيِّ وتاريخِهِ ، أنْ ننَسى قوميَّتَنا وكلَّ مُشخِّصاتِنا . . . لنجتهدَ في أنْ ندرسَ الأدبَ العربيَّ غيرَ حافلينَ بتمجيدِ العربِ ، أوِ الغضِّ منهم ، ولا مُكترثينَ بنصرِ الإسلامِ أوِ النّعيِ عليهِ)[1].

هكذا ظهرَ أصحابُ الثقافةِ المدنيّةِ ، أي اللادينيَّةِ أوِ اللاإسلاميَّةِ والذين أطلقوا على أنفسِهم دُعاةَ التّجديدِ ، بينما قامَ نفرٌ منْ أصحابِ الثقافةِ الإسلاميَّةِ في مصرَ وغيرِها من البلادِ العربيةِ والإسلاميّةِ ، بالدّعوة إلى الإصلاحِ التّعليميِّ والثقافيِّ وتمجيدِ القيمِ . ثمّ شهِدَ عقدُ السبعينيات ـ من القرنِ العشرين وإلى يومنا هذا ـ ثورةً هائلةً في العلاقاتِ والاتصالاتِ ، وقفزةً واسعةً في اختصارِ الزمانِ والمكانِ ، ونقلِ الأفكارِ والمعلوماتِ ، وكأنّ العالَمَ أصبحَ قريةً واحدةً صغيرةً ، كما شَهِدَ ما يُمكنُ أنْ يُسمى «بانفجارِ المعلوماتِ» الثقافيّةِ المتعددةِ الجوانبِ ، التي أمستْ تنمُو وتتكاثرُ بطريقةٍ تراكُميّةٍ كبيرةٍ ، فأصابتِ الدُّنيا بأسْرِها .

تجاوزَتِ الأُمّةُ العربيّةُ والإسلاميّةُ ، كثيراً مِنَ المُعوِّقاتِ الاجتماعيّةِ والثّقافيّةِ ، واستعادتْ جُزءاً كبيراً مِنَ الثِّقَةِ الذاتيّةِ ، حيثُ ظَهَر ما يُسمّى «بالصَّحْوَةِ

---

(١) طه حسين : في الشعر الجاهلي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، لا . ط ، ١٩٢٥م ، ص ٢٩٠-٢٩٦ .

الإسلاميّةِ» في مطلعِ العَقدِ السّابعِ مِنَ القرنِ العشرينَ . واستمرَّ المدُّ الإسلاميُّ المُلتَزِمُ ، لا سيما بينَ الشبابِ والشّابّاتِ إلى يومنا هذا . إذْ كُلّما زادَ التّحدّي للمُسلمينَ بسببِ دينِهم ، يزدَادُ ثباتُهُم ويقْوى إيمانُهُم بعقيدَتِهم ، وبتُراثِهِمُ الاجتماعيِّ ، وفِكرِهِمُ الثّقافيِّ .

خامساً : في الحالة الدّينيّةِ

يشتَمِلُ الدِّينُ الإسلاميُّ على أُسُسٍ ثلاثةٍ هِيَ : العقيدةُ ، والشريعةُ والأخلاقُ .

أمّا العقيدةُ : فهيَ الأُمورُ التي تتعلّقُ بالاعتقادِ ، وهو تصديقٌ وإذعانٌ يستقِرُّ في النّفسِ الإنسانيّةِ ، ويكونُ مُستتراً في داخلِها .

وأمّا الشريعةُ : فهيَ عبارةٌ عَنِ الأعمالِ التي يقومُ بها المرءُ ، عِبادةً وخُضوعاً للهِ تعالى ، كالصّلاةِ والزّكاةِ ، والزّواجِ والطّلاقِ ، والبيعِ والشِّراءِ ، وغيرِها .

وأمّا الأخلاقُ : هي الصِّفاتُ التي يَتحلّى بِها الإنسانُ ، ويبدُو أثرُها في مُعاملاتِهِ حُسْناً أو قُبْحاً . تكونُ الأخلاقُ الحَسَنَةُ ثمرةً للعقيدةِ الصّحيحةِ والعباداتِ القويمَةِ ، (وقد أرادَ اللهُ تعالى أنْ يُبيّنَ للنّاسِ أُمورَ دينِهم مِنَ العقيدةِ ، والشّريعةِ ، والأخلاقِ ، وأنْ يُوضّحَ لهُم كُلَّ ذلكَ ؛ صيانةً لَهُم مِنَ الضّلالِ ، وحِرصاً لَهُم مِنْ أنْ يقعُوا في الشّرِّ والإثمِ والمُنكَراتِ ، . . . . . ولذلكَ أرسلَ اللهُ تعالى الرُّسُلَ عليهِمُ السّلامُ ، وبعثَ إليهِمُ الأنبياءَ ، مُبشّرِينَ ومُنذرِينَ ، ثُمَّ أوْحَى اللهُ تعالى إلى هؤُلاءِ الرُّسُلِ بالدِّينِ الحقِّ ، والعقيدةِ الصّحيحةِ ، . . . . هذا القَدْرُ مِنَ الدِّينِ الّذي يتعلّقُ بالاعتقادِ . . . الّذي يتعلّقُ بالإيمانِ باللهِ تعالى ، والتّصديقِ بوجُودِهِ ، وإنّهُ إلهٌ واحدٌ ، . . . هذا كلُّهُ قدْرٌ مُشتَرَكٌ بينَ الأديانِ السّماويّةِ جميعِها ، لا يختلِفُ باختلافِ الرُّسُلِ ، ولا باختلافِ زمانِهم ومكانِهم ، وهُوَ لذلكَ هديٌ كلُّهُ ، وهديٌ دائمٌ . . . وقد اقتضتْ حِكمةُ الله وعدالتُهُ ، أنْ

يُشرَّعَ لكلِّ أُمّةٍ شريعةً تُناسبُها ، وتتفِقُ معَ طبيعتِها ، واستعداداتِها . فلمّا حانَ الوقتُ المُناسِبُ للتَّشريعِ الإسلاميِّ ، أوحَى اللهُ تعالى بهِ إلى سيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ ، والّذي يتلاءَمُ [يتواءَمُ] ويتوافقُ معَ كلِّ جماعةٍ ويصلُحُ لكلِّ بيئةٍ ، وتَسْعَدُ بهِ الجماعاتُ التي تقومُ بأدائهِ ، وتحرِصُ على تعاليمِهِ)[1].

يُستنتَجُ مِنْ ذلكَ أنّ الإسلامَ قد أقامَ مُجتمعَهُ على العدلِ والإحسانِ فأعطى كلَّ إنسانٍ حقَّهُ بِحَسَبِ ما يقومُ بهِ مِنْ أعمالٍ ، فإذا لم يكْفِهِ نِتاجُ عملهِ ، جعلَ الإسلامُ العدلَ على أساسِ التّكافُلِ ، الّذي يقتضيهِ مبدأُ الإحسانِ .

الإحسانُ حَسَبَ التّعبيرِ الإسلاميِّ لا يكونُ قاصراً على الصّدقاتِ التطوُّعيّةِ . وإنّما يشملُ ما يُريدهُ الإسلامُ ـ مِنْ أبنائهِ ـ غيرَ الفريضةِ لتحقيقِ أهدافِ الإسلامِ ؛ لإزالةِ كلّ شيءٍ يُعكِّرُ صفوَ حياةِ الإنسانِ مثلَ : الفقرِ أو العوَزِ والحاجةِ ، فهذهِ المُعطياتُ الإنسانيّةُ تكمُنُ في التّوحيدِ الّذي هو أبرزُ الدلائلِ (على عالميّةِ الإسلامِ ، واستحقاقِهِ للبقاءِ والانتشارِ ، [بسبب] تطابُقِهِ معَ الفِطْرةِ الإنسانيّةِ ، وقُدرتِهِ على العطاءِ لكلِّ العُصُورِ والأزمنةِ والبيئاتِ ، وطابعهِ الإنسانيِّ الذي يقومُ على الإخاءِ والمساواةِ ، وعدمِ التّفرقَةِ بينَ الأجناسِ والعناصرِ .

يستَمِدُّ الإسلامُ هذا المنهجَ المُتكاملَ الإنسانيَّ الطابَعِ ، العالميَّ النزعَةِ مِنَ التّوحيدِ . فالتّوحيدُ الخالصُ الّذي يَمُدُّ رُواقَهُ على كُلِّ القيَمِ ، هو أُسُسُ الأساسِ في مفهومِ الإسلامِ . ويبدأُ التّوحيدُ بتوحيدِ اللهِ ، ثمّ يُقيمُ وِحْدَةَ الجنسِ البشريِّ ، وَوِحْدَةَ الفكرِ الإنسانيِّ)[2].

---

(١) عوض الله حجازي : في الفكر الإسلامي« العقيدة الإسلامية» ، مطبعة جامعة الإمارات العربية المتحدة ، العين ، لا . ط ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م ، ص١٠ ، ١١ .

(٢) أنور الجندي : عالمية الإسلام ، دار الاعتصام للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٨م ، ص١١ .

وفي المُقابلِ تعرّضتِ البلادُ العربيّةُ والإسلاميةُ لا سيما بعدَ انتهاءِ الحربِ العالميّةِ الأُولى ، وانتهاءِ الخلافةِ العُثمانيّةِ الإسلاميّةِ والقضاء عليها ، إلى التّقسيمِ والتجزئةِ ، ووقوعِ غالبيتِها تحتَ الوصايَةِ أو الانتدابِ الأجنبيِّ ، الّذي أسهمَ بدورِهِ في عمليّةِ التّبشيرِ ومُساعدةِ أربابِ التّبشيرِ ، حيثُ إنّهُم كانُوا يَتَستَّرُونَ بالدّعوةِ إلى التّنصيرِ تحتَ شِعارِ المسيحيّةِ ، ويُخفونَ أهدافَهُمُ السِّياسيَّةَ ، والاقتصاديّةَ وغيرَها ، مثلَ : رغبتِهِم في النُّفوذِ إلى تحطيمِ الجدارِ الإسلاميِّ . (يظُنُّ بعضُ الناسِ أنّ المُبشّرينَ ، يأتونَ إلى الشرقِ لنشرِ الدّينِ على أنّهُ هدفُهُمُ الأسمى . والحقُّ إنّ نشرَ الدّينِ أمرٌ ثانويٌّ جدًّا في جميعِ الحركاتِ التّبشيريّةِ . إننا إذا تأمّلنا العالمَ الغربيَّ وجدناهُ عالَماً مُلحداً لا يؤمنُ بدينٍ [أصلاً] ، وعَالَماً ماديّاً لا يعرِفُ للرُّوحِ معنًى ، .... بل إنَّ ـ مِنَ المُبشّرينَ ـ نَفراً يَسْعَونَ وراءَ أطماعَ ومُغامَراتٍ شخصيّةٍ ، شوّهَتِ اسمَ النّصرانيّةِ في الشرقِ ..... [إلاَّ] أنَّ جميعَ المُبشّرينَ سواءٌ أكانُوا انتهازيّينَ دُنيويّينَ ، أم كانُوا مُخلصينَ في مُهمّتِهم : تتميّزُ كلُّ فرقةٍ منهُم بعداوةٍ شديدةٍ نحوَ العربِ والمُسلمينَ ، وبعداوةٍ ظاهرةٍ نحوَ أهلِ الفرقِ النّصرانيةِ المُتباينةِ [فيما بينها] ، . . . إنَّ القوّةَ التي تكمُنُ في الإسلامِ هي التي تُخيفُ أوروبا) [1].

يعودُ الكُرهُ الدّفينُ والمُعْلَنُ ـ لا ريبَ ـ إلى العداوةِ التي أثارَها الصليبيّونَ ، أثناءَ حروبِهِمُ الصّليبيّةِ ، خاصّةً عِندَ احتِلالِهِم ، لبيتِ المقدِسِ .

إنَّ المُسلمينَ لا يزالونَ مُتأثّرينَ بمواقفِ الـدُّولِ النّصرانيّةِ مِنَ الإسلامِ . تلكَ

---

(١) مصطفى خالدي وعمر فرّوخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٣٤-٣٦ .

المواقفُ العدائيةُ[1] التي تتجدّدُ بين حينٍ وآخرَ ، حسبَ الأهواءِ والمصالحِ والأطماعِ الماديّةِ المُتعدّدةِ .

عندما يُذكَرُ الغَزْوُ الفكريُّ الغربيُّ المُعادي للإسلامِ ، يُذكَرُ بجانبِهِ أيضاً تيارُ الفكرِ الماركسيِّ ، فإنْ كان أحدثَ عهداً مِنْ سابقِهِ إلا أنّهُ أسوأُ أثراً ، وأشدُّ خَطراً على الإسلامِ والمُسلمينَ ؛ لأنّهُ مِنَ الأفكارِ التي تدْعُوَ إلى هدمِ الأخلاقِ ، بلْ تَعتبِرُ الأديانَ أفيونَ الشُّعوبِ[2]. ويزعُمُونَ أنّ النّاسَ يُقبلُونَ على الدِّينِ لأنّهُ يخدِّرُهُم بالأملِ في الآخرةِ ، فلا يطلُبُونَ العَدْلَ والنِّعَمَ في هذهِ الدُّنيا ، لأنّهُ يجعلُهُم يَلْهَونَ عنْ مصادرِ الشّقاءِ في حياتِهم ، كما يتراءَى للماركسيِّنَ الحاقِدينَ .

فالماركسيّةُ أو الشُّيوعيّةُ تنكرُ الأديانَ جميعاً ، وتكْفُرُ بكلِّ الأنبياءِ والمُرسلينَ ، وابتُليتْ بها بعضُ بلادِنا العربيّةِ والإسلاميّةِ ، بعدَ الثورةِ الروسيّةِ

---

(١) من المواقف العدائية المتجددة والمعاصرة ما حدث من اعتداءٍ مسلّحٍ ، واحتلالٍ لأفغانستان عام ٢٠٠١م ، واحتلال العراق عام ٢٠٠٣ م ، ثم تصريحات بوش الابن ـ رئيس الولايات المتحدة الأمريكيّة ـ في إحدى خطاباتِهِ ، بأنّ حربه في الشرق الأوسط امتداد للحروب الصليبية ، ثم تبريره لهذا الموقف بأنها زلّةُ لسان . [والحقيقة أنّ بوش يستمدُّ عقيدتَهُ من] الحزب المسيحي الصهيوني الذي ينتمي إليه ، فتراه يصرِّحُ بأنَّ الرّبَّ يتحدّثُ إليهِ ، وأنّ عقيدتَهُ الدينيّةَ حسبما يزعم بأنّه رسولٌ من ربه ، انظر ، ستانلي كوهين وأحمد منصور : برنامج بلا حدود ، مقابلة فضائية ، محطة الجزيرة ، الدوحة ، قطر ، الأربعاء ، في ٢٠٠٧/١١/٢١م .

(٢) أفيون الشعوب : أطلق «كارل ماركس وأتباعُهُ من الشيوعيينَ» هذه العبارةَ على الأديانِ جميعها ، [والذي يجمع بين الشيوعيّة والماركسيّةِ هو] أنّ كلمةَ الشيوعيّةِ ترجمةٌ عربيّةٌ لمذهب «كارل ماركس» في حالةِ التطبيقِ ؛ لأنه يزعم أنّ مذهبَهُ ينتهي إلى إباحةِ كلِّ شيءٍ على الشُّيوعِ أوِ المشاعِ ، انظر ، مجتمع الأحقاد ، من رسائل جمعية الإصلاح والتوجيه الاجتماعي ، مطبعة بنك دبي الإسلامي ، الإمارات العربية المتحدة ، لا . ط ، لا . ت ، ص١٧ .

عام١٩١٧م، وانتشرتْ في مُنتصَفِ القرنِ العشرين ، لا سيما في مصرَ والسودانَ واليمنِ الجنوبيِّ سابقاً وغيرِها ، تحتَ مُسمّياتِ الشُّيوعيّةِ أو الاشتراكيّةِ ، إلاّ أنّها تقهقرتْ في نهايةِ الأمرِ في عُقرِ دارِها ، ومهدِها الّذي فيه نَشأتْ . لعلَّ مِنْ أسبابِ ذلكَ ؛ لأنّها تُخالِفُ الفِطْرةَ أوِ الجِبِلَّةَ التي فَطَرَ اللهُ تعالى عليها الإنسانَ ، في حُبِّ المِلْكِيَّةِ الفرْدِيَّةِ .

إنَّ مِنْ أهمِّ مَظاهرِ تَرَدِّي الحياةِ الدِّينيّةِ في هذه الآونَةِ هُوَ : القضاءُ على الخلافةِ الإسلاميّةِ الْعُثْمانيَّةِ عام ١٩٢٤م ، بعدَ بروزِ ظاهرةِ الكماليّةِ[١].

إذْ كانت بمثابةِ الصّاعقةِ المُجلْجِلَةِ ، التي قَضَّتْ مضاجعَ العالَمِ الإسلاميِّ ، (عندما أسقطَ المُرتدُّونَ الخلافةَ الإسلاميّةَ في تركيا ؛ [و] أقامُوا نظاماً علمانيّاً ، ظاهرُهُ الانفلاتُ من الأديانِ كُلِّها ، وباطنُهُ مُخاصمَةُ الإسلامِ وحدَهُ . . . . وكان النِّظامُ الجديدُ عسكريّاً صارِماً ، بدأ عهدَهُ بقتلِ عددٍ كبيرٍ مِنْ العلماء [لاسيَّما عُلماءِ الإسلامِ الرَّبّانيِّينَ] الّذينَ قاوموهُ . والحقُّ أنّ الشّعبَ كُلَّهُ كانَ كارهاً لَهُ ، مؤثِراً الإسلامَ في شئونِ حياتِهِ كلِّها ، مُنتهزاً كلَّ فُرصةٍ لإظهارِ ولائهِ الإسلاميِّ وحنينهِ إلى أنْ يعودَ الإسلامُ المُسْتَبْعَدُ مِنْ جديدٍ)[٢].

أُلغيَ التَّعليمُ الدِّينيُّ في المدارسِ الرَّسميَّةِ ، وعُطِّلَتِ المحاكِمُ الشَّرعيَّةُ في تُركيا ، بسببِ سُقوطِ دولَةِ الإسلامِ المُمَثَّلَةِ بالخِلافةِ العُثمانيَّةِ ، في ذلكَ الوقتِ ،

---

(١) الكماليّة : نسبةً إلى «مصطفى كمال أتاتورك»، (١٨٨١-١٩٣٨م) قائد تركي [يسمى بأبي الترك] ولد في سلانيك ، مؤسس الجمهورية [التركية] ، وأول رئيس لها [عام] ١٩٢٣م ، قام بإصلاحات اجتماعية ، غير الكتابة من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني ، قضى على الخلافة الإسلامية . انظر ، قسطنطين تيودوري ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص١٢ .

(٢) محمد الغزالي : تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل ، دار الشروق ، القاهرة ، ط٤، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ، ص٥١ .

كَما مُنِعَ الحديثُ والأذانُ باللُّغةِ العربيَّةِ ، واستُبدلَتِ الحروفُ العربيةُ بالحُروفِ اللاتينيّةِ . وَجدَ المُسلمونَ أنفسَهُم مُنْذُ ١٩٢٤م بدُونِ خليفةٍ ، فبايعَ بعضُ عُلَماءِ الأزهرِ الملكَ «فاروقَ» ، وبايعَ عددٌ مِنَ المُسلمينَ ملكَ الحجازِ «الحسينَ ابنَ عليٍّ» خليفةً على المسلمينَ ، ولم يكُنْ ملكُ أفغانستانَ «أمانُ الله خان» مُعرِضاً عَنِ الخِلافَةِ . اشتدَّت عندئذٍ حركاتٌ استقلاليّةٌ في البلادِ العربيّةِ والإسلاميّةِ ، مثلُ : ثورةُ المهدي[1] في السودان ، والحركةُ السَّنُوسيَّةُ[2] في ليبيا ، والحركةُ الوهّابيّةُ[3] في نجدٍ ، والثورةُ العربيّةُ الكبرى في سوريا . حَدَثَ ذلكَ بمُجرّدِ انهيارِ الخلافةِ . احتضنَ المسيحيونَ القوميّةَ العربيّةَ في بلادِ الشّامِ ،

---

(١) المهدية : واحدة من أبرز حركات الإصلاح ، التي ظهرت في العالم العربي والإسلامي مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلادي ، [وهي صوفيّة الاتجاه] ، مؤسسها « محمد أحمد المهدي بن عبد الله» ولد في جزيرة لبب ، جنوب مدينة دنقلة في السودان ، [و] في عام ١٨٨١م أصدر فتواه بإعلان الجهاد ضد الكفار والمستعمرين الإنجليز . انظر ، مانع بن حماد الجهني : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، ط٢ ، ١٤٠٩هـ ، ص٤٦٥ .

(٢) الحركة السنوسية : نسبة إلى «محمد المهدي السنوسي» رئيس الطريقة السنوسية ، ذات النفوذ الكبير في ليبيا ، [عينه «محمد أحمد المهدي»] ، الخليفة الرابع له ، وهي حركة صوفية أيضاً . انظر ، المرجع السابق ، ص٤٦٦ .

(٣) الحركة الوهابية : تنسب إلى «محمد بن عبد الوهاب» المتوفى سنة ١٧٨٧م ، ظهرت الوهابية في الصحراء العربية ، [في بلدة «الدرعية» في نجد بالقرب من مدينة «الرياض»] ، نتيجة للإفراط في تقديس الأشخاص والتبرك بهم ، وقد درس «محمد ابن عبد الوهاب» مؤلفات ابن تيمية . . . . وأخرجها من حيز النظر إلى حيزالعمل ، [لكنهم] توسعوا في معنى البدعة توسعاً غريباً ، حتى أنهم ليزعمون أنّ وضع ستائر على الروضة الشريفة أمر بدعي ، واستنكروا التصوير الفوتوغرافي . انظر ، محمد أبو زهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٦م ، ص٢١٢ ، ٢١٣ .

كذلكَ فعلَ الأقباطُ في مِصْرَ ، إذْ (كانَ المُفكِّرونَ المسيحيّونَ القوميُّونَ ، مِنْ أمثالِ «نجيب عازوري» أوّلَ مَنْ تقدّمَ بطلبٍ صريحٍ ، بفصلِ الأراضي العربيّةِ عنِ الإمبراطوريّةِ العُثمانيّةِ ، وكانَ مسيحيّو الشامِ أوّلَ مَنْ رفعَ شعارَ القوميّةِ العربيّةِ ، بديلاً مِنَ الرّابطةِ الإسلاميّةِ ، والوِحْدَةِ العربيّةِ بديلاً من التّجمُّع الإسلاميِّ)[1]. اتسعتِ الشُّقةُ بينَ أبناءِ الخلافةِ الإسلاميّةِ المنكوبةِ ، وتعدَّتِ الحركةُ القوميّةُ العربيّةُ في ذلكَ الوقتِ حدودَ المسيحيينَ ، لتشمَلَ عدداً من عُلماءِ المسلمين ، من أمثالِ (عبد الرحمن الكواكبي ، ولا ينبغي أنْ نغفلَ دورَ الإنجليزِ الأساسيِّ في إذكاءِ جَذْوةِ القوميّةِ . انطلَقَ عددٌ مِنَ المُثقَّفينَ العربِ[2] في عدائِهم للإسلامِ ، ومهاجمتِهم إيّاهُ من مُنطلَقِ القُوميّةِ ، وانتقلت العدوى

---

(١) ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكر ، لا . د ، القاهرة ، لا . ط ، ١٩٥١م ، ص١٦٥-١٧٥ .

(٢) كان من هؤلاء المثقفين العرب : «ميشيل عفلق» : مسيحي ينتمي إلى الكنيسة الشرقية ، عاد من باريس قادماً إلى دمشق ، عام ١٩٣٢م ، [وبرفقته] «صلاح البيطار» سني ، وذلك بعد دراستهم العالية محملين بأفكار قومية وثقافية أجنبية ، [ثم أصدرا] مجلّة الطليعة مع الماركسيين سنة ١٩٣٤م ، وكانوا يطلقون على أنفسهم «جماعة الإحياء العربي» ، [و] في نيسان ١٩٤٧م [تأسس] حزب البعث العربي ، وكان من المؤسسين : «ميشيل عفلق» ، «صلاح البيطار» ، «جلال السيد» «زكي الأرسوزي»، كما قرروا إصدار مجلة باسم البعث ، وكانوا يؤكدون فصل الدين عن السياسة ، والدعوة إلى القومية العربية ، ومن قبلهم «ناصيف اليازجي» وابنه «إبراهيم اليازجي» [في سنة] ١٩٠٦م ، و«بطرس البستاني» ، و«جرجي زيدان» ، و«جمال الدين الأفغاني» ، وقد أدخل نظام الجمعيات السرية . في العصر الحديث إلى مصر ، و«محمد عبده» من أبرز تلاميذ الأفغاني ، وشريكه في إنشاء مجلة العروة الوثقى ، ولقد كانت مدرسته ومنها «رشيد رضا» ، إنما تدعو إلى مهاجمة التقاليد والمطالبة بإعادة النظر في التشريع الإسلامي ، انظر ، مانع بن حماد الجهني : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص٧٩ ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

الكماليّة إلى مِصْرَ، في صُورةِ حَرَكَةٍ فِكْرِيَّةٍ، مثّلَها الشّيخُ «علي عبد الرازق»[1] في عام ١٩٢٥م، [وغيرُهُ مِنْ دُعاةِ التّغريبِ[2] يومَئذٍ]. الدّاعِينَ لِنقلَ الفكرِ العِلمانيِّ إلى مِصْرَ، وكانتِ الدَّعْوَةُ إلى مِصْرَ «الفِرْعَوْنِيَّةِ»، تكتسحُ مِصْرَ كأعنفِ تَعبيرٍ، عَنْ هَذا التَّيْهِ العَقائديِّ، والخَلْطِ الفِكْريِّ[3]. مِمّا تقدَّمَ يَبدُو

---

(١) الشيخ علي عبد الرازق : كان قاضياً أزهريًّا في مصر، [لكنّه من أصحاب الفكر العلماني ومن دعاة التغريب] حيثُ يرى في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» [والذي نشره] في سنة ١٩٢٥م، إنّ الخلافةَ نظام تعارف عليه المسلمون، وليس في أصول الشرع ما يُلزمُ به، وفي الفصل الثاني من الكتاب، ينفي وجود الحكومة، أو أيّ دعوةٍ لإقامتها في قوانين الإسلام، وفي الفصل الثالث من الكتاب، يرى أنّ رئاسةَ النبيِّ ﷺ، كانت دينيّة وبموته انتهت الرسالة وانتهت الزّعامة. انظر، عباس خامه يار : إيران والإخوان المسلمين، تعريب، عبد الأمير الساعدي، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٥٣-٥٥. انظر، مانع بن حماد الجهني : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص ١٤٩.

(٢) من دُعاة التغريب والدعوة للعلمانيّة في مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين الميلادي ومنتصفه : «قاسم أمين»[وقد وضع كتابيه] : «تحرير المرأة» في عام ١٨٩٩م، و«المرأة الجديدة» في عام ١٩٠٠م، و «علي عبد الرازق»، [في كتابه] «الإسلام وأصول الحكم» ونشره في سنة ١٩٢٥م وقد حُوكم الكتاب والمؤلّف من قِبل هيئة العلماء بالأزهر في ١٩٢٥/٨/١٢م، وصدرت ضده إدانة أخرجته من زمرة العلماء، و«طه حسين» في كتابيه : «في الشعر الجاهلي»، عام ١٩٢٦م، و«مستقبل الثقافة في مصر» في عام ١٩٤٤م، و«سلامة موسى» في كتابه«حرية الفكر» وكتابه «اليوم والغد» في عام ١٩٢٧م، «ومحمود عزمي» [وهو] من أكبر دعاة الفرعونية في مصر، و «أمين الخولي» [إذ] كان يروِّجُ لأفكار «طه حسين» في الدعوة إلى دراسة القرآن[الكريم] دراسةً فنية بقطع النظر عن مكانته الدينية، وقد استمر في ذلك سنة ١٩٤٧م، حتى كشفه الشيخ «محمود شلتوت»، حيث إنّ هؤلاء كانوا في طليعة الدّاعين، إلى نقل الفكر العلماني في مصر. انظر، المرجع السابق، ص١٤٧-١٥٠.

(٣) عباس خامه يار، تعريب عبد الأمير الساعدي : إيران والإخوان المسلمين، ص٥٥-٦٠.

واضحاً أثرُ الحملاتِ المسعُورةِ ، الدّاخليَّةِ والخارجيَّةِ معاً ، على الإسلامِ والمُسلمينَ ، في حِقبةِ هذه الدِّراسةِ بين (١٩٠٥-١٩٨٢م) . أمّا الذي يَجْعَلُ الأمرَ مُنكراً : هو انقسامُ المُسلمينَ إلى سَلَفٍ وَخَلَفٍ ، ومالكيِّينَ وَحَنَفِيِّينَ ، وَصُوفيِّينَ وَحركِيِّينَ ، وَشِيعَةٍ وَسُنَّةٍ ، وتَقَدُّميِّينَ وَرَجْعِيِّينَ ، وقوميِّينَ وعُملاءَ ، واشتِراكِيِّينَ وَرَأسْمالِيِّينَ ، ومُتَطَرِّفِيِّنَ وَمُعْتَدِلِيِّنَ إلى غيرِ ذلكَ مِنْ مُسمَيَّاتٍ مَسْمُومَةٍ في أهدافِها ، مَشْبُوهَةٍ فِي نَتائِجِها . فلا يكُفُّ الأذى عنْ أُمّةِ الإسلام إلاّ جيلٌ يَفهمُ قولَ اللهِ تعالى :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب:٢٣،٢٤). يصفُ اللهُ تعالى المؤمنينَ ، بأنَّهُم يستمرُّونَ على عهدِهِم مَعَ اللهِ سُبحانَهُ ، ويلتزمُونَ بميثاقِهِ صَبراً وجهاداً في سبيله ، فمنْهُم مَنْ وفَّى بنذْرِهِ حتَّى نالَ الشَّهادةَ ، كـأنسِ بـنِ النّضر[1] وحمزةَ بنِ عبدِ المُطّلبِ[2]،

---

(١) أنس بن النضر : صحابيٌّ جليلٌ ، لم يشهدْ مع رسولِ اللهِ ﷺ يومَ بدرٍ فشقَّ عليهِ ، وقالَ . . . لئن أراني اللهُ تعالى ، مشهداً فيما بعدُ ، مع رسول الله ﷺ ، ليرينَ اللهُ عزَّ وجلَّ ما أصنعُ ، [وفي يوم أُحُدٍ ، قاتلَ المشركينَ حتى قُتِلَ] فوجِدَ في جسدِهِ بِضْعٌ وثمانونَ بينَ ضربةٍ وطَعنَةٍ ورميةٍ . انظر ، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي «المتوفى سنة ٧٧٤هـ» : تفسير القرآن العظيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م ، ٣/٤٤٣ .

(٢) حمزة بن عبد المطلب : صحابيٌّ جليلٌ ، [من بني هاشم ، عمُّ رسول الله ﷺ ، لقّبهُ الرسولُ ﷺ بأسد الله وأسدِ رسولِهِ ، قتله وحشيٌّ في غزوةِ أُحُد ، فكان هو وأنس ابن النضر ممن نزلَ فيهم قوله تعالى] : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾ . انظر ، محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ، دار القلم ، بيروت ، ط٥ ، ٢ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ٢/٥٢١ .

رضي الله عنهم . ومَنْ بقيَ مِنْهُم فإنَّهُ ينتظرُ الشَّهادةَ في سبيلِ اللهِ تعالى ، ولم يَنقُضُوا عهدَهُم مَعَ اللهِ تَعالى أبداً ، ليَجزيَ اللهُ تَعالى الصَّادقِينَ بسبَبِ حُسْنِ صَنيعِهِم وصِدْقِهِم ، أحسَنَ الجَزاءِ في الآخرةِ ، ويُعذِّبَ المُنافقينَ النَّاقِضينَ لعهودِهِم بأنْ يُميتَهُم على النِّفاقِ فيُعذِّبَهُم ، أوْ يتوبَ عليهِم فيرحمَهُم ؛ لأنه واسعُ المغفرةِ رحيمٌ بعبادِهِ . عاشَ «البهيُّ» خِضَمَّ هذهِ الأحداثِ السِّياسيَّةِ الاقتصاديَّةِ ، والاجتماعيَّةِ الثَّقافيَّةِ الدِّينيَّةِ ، وكانَ لُكلِّ عُنصرٍ مِنْ تلكَ العناصرِ ، أثرُهُ المُباشَرُ في تكوينِ شخصيَّتِهِ . حيثُ تجدُهُ لا ينغَمِسُ كثيراً في التَّقلُّباتِ السِّياسيَّةِ إلاَّ لِماماً ، أمَّا إذا كانَ الأمرُ ، يتعلَّقُ بالإيمانِ أو الإسلامِ ، فإنَّهُ يَنْبَرِيَ كالطَّودِ الأشَمِّ ، عِمْلاقاً مُنافِحاً عَنْ حِياضِ دينِهِ ، كما تجدُهُ مُنصرِفاً إلى تَلقِّي العلومِ النَّافعَةِ ، حريصاً على مُجالسةِ عُلماءِ عَصْرِهِ وَمِصْرِهِ ، فالتَّدْريسُ والتأليفُ ديدنُهُ ومَيْدانُهُ ، فَهُوَ انعكاسٌ طبيعيٌّ للحياةِ الثقافيَّةِ والدِّينيَّةِ الزاهرةِ في مِصْرَ ، حيثُ الأزهرُ الشريفُ ، فقدْ كانَ في ذلكَ الوقتِ قبلَةُ أنظارِ المُسلمينَ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها ؛ نظراً للمكانةِ الاجتماعيَّةِ المَرْمُوقَةِ التي ينالُها المُتخرِّجونَ مِنْهُ ، ولِما يدعُو إليهِ مِنَ الاهتمامِ بِعُلُومِ الشَّريعةِ وأُصولِ الدِّينِ ، والعنايةِ بالكتابِ تفسيراً والسُّنَّةِ تصنيفاً وتوضيحاً ، واللُّغةِ العربيَّةِ نحواً وبلاغةً وصرفاً ، نثراً وشعراً . كانَ «البهيُّ» إذاً نِتاجَ زمانِهِ حيثُ نشأَ وتعلَّمَ ، على أيدي شيوخٍ وعُلماءِ عصرِهِ البارزينَ . استطاعَ أنْ يأخُذَ مِنْ كُلِّ هؤلاءِ بِقَدْرٍ كافٍ ، لِيَبْرُزَ فيلسوفاً مُفكِّراً ، فقيهاً مُفسِّراً ، مُصلحاً مُجدِّداً ، وغيوراً على دينِهِ وأُمَّتِهِ .

• • •